المعاصي لا تطفئ الغيرة

يوم دخلت (فدوى) علي ذات مساء أدركت أن ابنتي تنحدر نحو هوة سحيقة قد لا يكون لها قرار. كانت نامصة، من لحظات جاءت من عند المصففة نمصت حاجبيها، صبغت شعرها وقصته بشكل مزرٍ لا يليق بها وارتدت عدسات ملونة جعلتها تبدو كالقطة.

غضبت منها وزجرتها إلا أنها لم تُعِر رَدَّ فعلي هذا اهتمامًا يذكر، بل انتزعت من عيني نظرة الانبهار الأولى وفسرتها بأنها نجحت حقًا في تغيير شكلها وتجديده: «هذا ما أريده، حقًا إن أنس سينبهر أيضًا فلقد صرت وجهًا جديدًا» قالت هذا وهي تتأمل شكلها في المرآة «لن أدع ضرتي تسبقني إلى شيء!!» لم أملك إلا أن أقول: اللهم يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك.

فدوى هذه خير بناتي كلهن أعني كانت التحقت بدور التحفيظ وقطعت شوطًا كبيرًا في الحفظ وأتقنت التجويد جيدًا حتى تم ترشيحها للتدريس في الدار القريبة من بيتنا، أدخلت إلى بيتنا أشياء لم نكن نعرفها أو نوليها اهتمامنا كالأشرطة المسموعة والمطويات والكتيبات والمجلات الإسلامية، وكانت تتعهدنا بالنصح والمتابعة وتذكرنا بنعيم الله وعذابه، كانت لها أثر ملموس في حياتنا، أنزلت الصور من الجدران، قللت من أجهزة التلفاز في البيت حتى غدت جهازًا واحدًا في غرفة واحدة، علمتنا الإكثار من الذكر والتسبيح وانتزعت حجاب التبرج من أخواتها حتى صرن ينادينها بـ الشيخة فهي حقًا تمارس دور المحتسب في البيت.

تزوجت من رجل فاضل ومكثت معه سنوات على حالها السابق أمر بالمعروف ونهي عن المنكر وحرص على الخير حتى كان ذلك اليوم الذي أخبرها فيه بنيته الزواج بأخرى فجن جنونها وانقلبت موازينها واختل تفكيرها فظلت أيامًا وليالي في بكاء مستمر وعزلة قاتلة لا تذوق طعامًا ولا شرابًا حتى خفت عليها الهلاك فاستحلفتها بالله إلا خرجت من هذا الحال أو يقضي علي ففعلت رحمة بي ثم عادت إلى بيت زوجها امرأة أخرى!!

ظنت أنها الآن في حال حرب وتنافس مع ضرتها على قلب زوجها أيهما تظفر به وتميله إليها وتستحوذ على لبه وتفكيره، ورأت أنها لن تصل إلى ذلك إلا بالمبالغة في الزينة وتزويق المظهر وتجديد (الديكور) الخارجي وأوحى إليها شيطانها أن زوجها ربما انصرف إلى غيرها بسبب مظهرها المتدين في لباسها وعباءتها فشمرت عن سواعدها وبدأت تنحدر نحو الأسفل خطوة خطوة.

صرفت الكثير على أدوات الزينة وصار همها متابعة كل جديد في ذلك فاشترت المجلات النسائية التافهة وبدأت تغير في شكلها وشعرها لتبدو مثل المذيعة الفلانية أو الفنانة العلانية وصار جزءًا كبيرًا من مالها ووقتها يذهب في دهاليز المشاغل النسائية والمراكز التجارية. ثم انحدرت خطوة أخرى فغيرت في شكل حجابها قليلًا حتى بات يواكب آخر صيحات الموضة فهي بهذا الشكل تبدو أصغر من سنها كثيرًا مما يجعلها تداني ضرتها في العمر والشكل!!

وفي حفل زفاف أخت زوجها ارتدت (فدوى) فستانًا بخمسة آلاف ريال بدا منه جزء كبير من ظهرها وصدرها وعدمت فيه الأكمام وانكشفت الساقان ولما دخلنا إلى صالة العرس بادرت أخواتها بالسؤال: أيهما أحلى أنا أم هي؟! فستاني أكثر أناقة من فستانها.

لقد كان مظهرها يوم دخلت علي مؤلمًا، كان حقها لحاجبيها مصيبة كبيرة جعلتني أدرك أن ابنتي اختلت عندها المفاهيم واختلطت القيم سألتها بمرارة هل زوجك مقتنع بما تفعلين؟! أجابت بمرارة أشد والله لم أحرك فيه شعرة ولكنه شيء في قلبي يشتعل وأود إطفاءه. وهل تطفئينه بالمعاصي وكثرة الذنوب والابتعاد عن الله أم أنك نسيت برد الإيمان وحلاوة الطاعة ولذة المناجاة هذا ما علمتنا إياه يا ابنتي الغالية فلا تكوني آخر المنتفعين هداك الله(*).

«والدتك»

(*) موقع «صيد الفوائد».

شهوة المال والتآمر!!

تُرى هل تساوي الدنيا كل هذا التناحر لأجلها؟ وهل يساوي المال هذا التعب والنصب، بل الاحتيال أحيانًا من أجل الحصول عليه والاستئثار به؟!

أدع لكم الجواب، وأحدثكم عن أبناء زوجي الذين جئتهم وقد تزوجوا جميعًا بنين وبنات، دخلت دار والدهم الكبير في السن، المريض في البدن، لكي أكون مؤانسة وراعية، وحتى أتخلص من تلك الوحدة التي كادت تقتلني بعد وفاة زوجي بعد عشرة دامت أكثر من عشرين عامًا!! إذن لست صغيرة فأشاكسهم ولا مراهقة فأستفزهم، إنما امرأة في عمر والدتهم أو أصغر بقليل.

أقبلت على حياتي الجديدة بكل رضى بالرغم مما سمعته من عبارات السخرية والاستهزاء (بالعروس العجوز) وسخَّرت كل ما تبقى من طاقتي وجهدي للاهتمام بزوجي ورعايته والاعتناء به. كان مازال نشيطًا يخرج في أعماله ويهتم بأموره إلا أنه كان يحتاج لمن ينظم له دواءه ويجهز له إفطاره الخاص.

فكنت أراعي في عمل غذائه نظام الحمية الصحي الذي كان مقررًا له من قبل طبيبة، وإذا اشتدت به أزمة الربو في ليل أو نهار لازمته كظله، أحمل له الأكسجين وأتابع تنفسه، كنت أدرك المطلوب مني جيدًا فأقوم به كما ينبغي.

تدهورت حالة (جاسم) في سنتين وبات طريح الفراش هزيلًا ضعيفًا وتراكمت عليه الأمراض، فكثرت أدويته وازدادت حاجته لي، فبذلت كل ما أستطيع للقيام بواجبي، فكان زوجي يدخل المستشفى أسبوعًا ويخرج مثله، ثم يعاود الدخول فيمكث ربما عشرة أيام لم يخرج وهكذا، حتى رأى أبناؤه أنه في حاجة إلى ممرض يلازمه

في البيت والمستشفى ليطمئنوا عليه فأحضروا له ممرضًا يعتني به ويراقب علاجه ويتفاهم مع الطبيب بشأنه، ومن هنا ولدت المشكلة التي باتت تؤرق مضجعي وتطرد النوم من عيني، وهي أنهم بدءوا في تنحيتي جانبًا من حياته وتهميش دروي وإلغائه، فالممرض معه طوال الأربع والعشرين ساعة، فما هي مهمتي وما هو دوري وما المطلوب مني؟

لقد كشروا عن أنيابهم وكشفوا عن وجههم القبيح وبدؤوا يمارسون من الاحتيال والمراوغة مع أبيهم ليشعروه بتقصيري وعدم اهتمامي به في أشد الأوقات حاجة لي، إنهم بصراحة يحاولون الحصول على ورقة طلاقي حتى لا أزاحمهم في الإرث، لقد ظهر هذا جليًا في الكثير من أفعالهم، فما معنى وصيتهم للممرض ألا يفارقه ثانية واحدة وألا يدع لي فرصة الجلوس معه ومحادثته؟

وما معنى عزله في قسم الرجال في البيت بعد أن كان يتوسط الصالة يسلم عليه من شاء، فإن خرج بقيت عنده فإن احتاج الممرض نادى عليه، الآن هو في قسم الرجال لا أعرف إن كان عنده ضيف أو كان وحيدًا؟!

صارت الوحدة تلازمني، بت أمل من البقاء في البيت، فلا من يؤنسني ولا من يشغل وقتي، لذا صرت أخرج في زيارات لبيت أخي أو أختي أو ابنتي من زوجي الأول، فكان هذا هو الباب الذي دخلوا منه على والدهم، ففي أوقات تنبهه وصحوته يكلمونه عن تقصيري وعن عدم اهتمامي به، وأنني منذ أن شعرت بمدى ضعفه وسوء حالته وأنا لا أبقى في البيت أبدًا ولا أسأل عنه ولا يهمني أمره، بل أن هذه الأزمة كشفت حقيقتي وأظهرت عواري، وأنني لست أهلًا لهذا العز ولا كفؤًا لهذا الزواج، وأن الغاية التي من أجلها قبلت به زوجها بدأت تحيق وتظهر بوادرها في الأفق، لذا فقد نزعت عني رداء المسكنة، وعباءة الطيبة وبان زيفي وتحطمت أقنعتي!!

يا إلهي، ألهذا الحد بلغت بهم الحيلة، ليحوروا أفعالي ويبرروا تصرفاتي حسب أهوائهم ورغباتهم، أنسوا أنني في أكثر من لقاء أطلب منهم أن يتركوا أمر تمريض والدهم علي؟ أجهلوا مدى عنايتي به في بداية الأمر وحبس نفسي في خدمته؟!

هل ذابت تلك المواقف التي أبديت فيها نزاهتي وتعففي عن المال الحرام الذي ليس له فيه وجه حق حتى بشهادتهم هم؟!

لم أدخل على طمع أبدًا، وإنما أريت الحمل في الطريق، مثل المسافر يبحث عمن يصاحبه حتى يحمله ويحمل عنه ليقطع المسافات الطويلة ويزيل الوحشة ويقرب البعيد، وأنتم أكثر من يعرف هذا، ولكن أعمى حب المال أبصاركم وقلوبكم واستكثرتم أن تشارككم امرأة غريبة عنكم لم تلد لكم الإخوة حلالكم ومالكم بعد هذا العمر الطويل الذي أفناه والدكم في تأسيس شركته وتوسيع نشاطاتها.

لا أقول لكم إلا أنني كنت حقًا أعاملكم كأبنائي الذين حرمتهم، ولكن يبدو أنكم أعلنتم الحرب وكفأتم الصفحة، فأسأل الله أن يجمع شملنا ويصلح ذات بيننا، والسلام(*).

«زوجة والدكم»

❁❁❁

(*) مجلة «الدعوة».

أنا لست فاتنة بل ظالمة

اسمها فاتنة وهي كاسمها جريئة ومتحررة مثقفة في كل شيء إلا في الدين عندها أن تكون ذات قلب طيب ولا عليها بعد ذلك تخالط من تشاء، تلبس ما تشاء وتفعل ما تشاء جمعت ليلة صويحباتها للاحتفال بعيد ميلادها.

عيد ما أنزل الله به من سلطان ورثناه عن الكفار تشبهًا وتقليدًا، ومن تشبه بقوم حشر معهم والعياذ بالله، كانت في أجمل هيئة وأحسن مظهر بدأت تدور بين صديقاتها وتطلق الضحكات هنا وهناك وتسألهن: أتدرين يا بنات ماذا ينقص حفلتنا هذه؟ فأجبنها إجابات وهي تقول: لا ثم لا وهي مصرة على سؤالها ثم قالت: وهي تجيب على سؤالها بنفسها وتضحك: تنقصنا الشيخة علياء تنقصنا الشيخة علياء، فانطلقت موجات الضحك من كل مكان والاستهزاء من كل مكان.

ثم قالت إحداهن مدافعة: لماذا كل هذا الضحك والاستهزاء على علياء أليست زميلتنا في الصف أليست صديقتنا ألم تكن إلى عهد قريب رفيقتنا في سهراتنا وحفلاتنا وغفلتنا وهي الآن في محرابها مع صلواتها وقرآنها إنها تبحث عن الآخرة ونحن عن ماذا نبحث؟!

فتجاهلنا سؤالها. قالت أخرى: لقد ذهبنا إليها (أي إلى علياء) لندعوها إلى عيد الميلاد ولكنها اعتذرت و أعطتنا محاضرة طويلة عريضة في الأخلاق والدين والعادات والتقاليد والتقاليد الاجتماعية. **قالت فاتنة**: مسكينة علياء لقد كانت عاقلة متحررة قبل أن يصيبها هذا الهوس الديني الذي اختطفها من بيننا.

قلت أنا: سبحان الله! أصبح الدين هوسًا وجنونًا ثم تابعت فاتنة حديثها وهي تقول: فعلًا مسكينة علياء لقد انقلبت بسرعة وتسممت أفكارها وتغيرت هيئتها لقد

أطالت ثيابها فأصبح منظرها ككبيرات السن والفلاحات لم تعد تؤمن بأن خير اللباس ما قل ودل والأدهى من ذلك شعرها أصبح بضاعة محرمة مغطاة تحت ذلك السواد، مسكينة علياء نسيت أن الله يهمه منا القلب وكل ما عدا ذلك شكليات.. الله أكبر! أصبح الحجاب والتمسك بالدين شكليات قاتل الله الشاشات و القنوات.

ثم تابعت فاتنة حديثها عن علياء: إنها تخوفنا من النار وأن الله سيحرق به أجسادنا المكشوفة إنها تنذرنا من شيء اسمه الموت ومن شيء آخر تسميه الحساب والحشر بل اسمعوا يا بنات إنها تحملنا مسؤولية إغواء الشباب و إغراء الرجال.

فقالت أحداهن: لقد قتلتها الهواجس والوساوس ونسيت أن الرجال للنساء خلقن ولهن خلقن الرجال، مسكينة علياء أين ستجد فتى أحلامها؟ أين ستجد السعادة والأنس؟ لقد قتلت نفسها وهي في ريعان الشباب ولا بد أن نصنع شيئًا لإنقاذها فارتفعت الأصوات لا بد من إنقاذها قبل أن تقتل نفسها بطول العبادة ولزوم البيت فلا أسواق ولا حفلات.. ما هذا الفهم الخاطئ للدين إن الحياة متعة وحرية، أما الموت فمالنا وماله الآن نعم سنموت عندما نشيخ ونهرم إنه الأمد الطويل ومن أطال الأمد أساء العمل.

انتهى الاحتفال ودارت سنوات وتخرجت البنات، تخرجت فاتنة، وتخرجت علياء، وثبتت على طريق الاستقامة والالتزام.

ماذا حصل لفاتنة وماذا حدث لعلياء والأخريات تعالوا أعطوني مسامعكم نتابع القصة من مكان آخر في إحدى المستشفيات في الدور الرابع في غرفة من الغرف صوت أنين مريضة يملئ الغرفة.. إنها في تلك الغرفة منذ عدة أشهر ولقد أيس الأطباء من حالتها وأصبح صوت أنينها معتادًا في المستشفى ولا أحد يستطيع أن يفعل لها شيئًا لقد تعودت الممرضات على سماع أنينها وشكواها.

أما الطبيبة المناوبة الجديدة في المستشفى فلم تستطع أن تتجاهل ذلك الصوت وذلك الأنين فأخذت بعض العقاقير والمهدئات وولجت إلى تلك الغرفة فتحت الباب فإذا بامرأة على السرير في شبه غيبوبة جست نبضها فإذا هو نبض ضعيف على وشك التوقف أصغت إلى تنفسها فكان التنفس مضطربًا خافتًا فجلست في جانبها وأعطتها بعض المنعشات فأفاقت بعد قليل واستوت على سريرها.

أدارت المريضة عينيها.. أدارت عينيها فيما حولها ثم ثبتت نظرها على وجه الطبيبة ثم أخذت تفرك عينيها بيديها الضعيفتين ثم زاد اضطرابها ثم قالت للطبيبة بربك قولي لي من أنت؟ قولي لي بالله العظيم من أنت؟

فقالت الطبيبة: أنا الطبيبة يا أماه.. فقالت المريضة: أنا لا أسألك عن مهنتك أنا أسألك عن اسمك أسألك بالله العظيم ألست أنت علياء؟

الطبيبة باستغراب: بلى أنا علياء، وفي لحظات إذا بالمريضة تطوقها بذراعيها وتضمها إلى صدرها وتقبلها وتجهش بالبكاء وزاد استغراب علياء وصعقت من عساها تكون هذه المريضة وهل بها مس من الجنون كيف عرفتني وأنا لم أقابلها من قبل ولم يسبق لي علاجها بل هذه أول ليلة لي في المستشفى كطبيبة مناوبة فرجعت علياء برأسها إلى الوراء وأخذت تنظر إلى المريضة مشدوهة مصعوقة لا تدري ماذا تفعل ثم قالت للمريضة: من أنت يا خالة وكيف عرفتي اسمي؟ وهل التقينا من قبل؟

فردت المريضة بصوت تخنقه العبرات: نعم يا علياء لقد التقينا مرات ومرات إن اسمك وصورتك لم يفارقا خاطري خاصة عندما أصابني المرض قبل ثلاث سنين.. آه يا علياء أنا التي أكلت لحمك واستهزأت بك.. أنا فاتنة يا علياء ثم انفجرت بالبكاء والنحيب.

صدمت علياء ولم تستطع الكلام ثم قالت وهي لا تصدق ما سمعت: أقسمت عليك بالله أأنت فاتنة؟؟ مستحيل فاتنة كانت كاسمها أصغر وأنضر!

فقالت فاتنة بصوت خافت متقطع: نعم أنا التي كان يقال لها ذات يوم فاتنة، فأكبت عليها علياء تضمها إلى صدرها وتجهش بالبكاء المر الأليم فلما هدأ البكاء أخذت فاتنة تروي قصة سبع سنين منذ أن افترقت قالت: تخرجت من البكلوريا وحاولت إكمال الدراسة فلم أستطع كنت لاهية متمردة على كل شيء لم أكن أشك بالله لكن كنت أعتقد أنه كل ما لله عندي أن أكون طيبة القلب وكفى تعرفت على كثير من شبان وفتيات ثم ارتبطت برجل تعرفت عليه في الوظيفة أحبني وأحببته لكننا كنا نعيش حياة غافلة بعيدة عن الله ثم بعد زواجنا بسنوات رزقنا الله بطفلة صغيرة جميلة رائعة سميتها سوسن على اسم صاحبتي التي تعرفينها، ثم بدأت أشكو من آلام في بطني فقال الأطباء: إنها قرحة، فأخذت أتعالج من دون فائدة، وأخذت آلامي تزيد وهمومي تزيد، وأنا أهرب منها بمزيد من الغفلة والضياع ثم تدهورت صحتي وجاء التشخيص الجديد ليقول: بداية تورم خبيث في المعدة، وهكذا تحولت القرحة إلى سرطان، ثم أخذ السرطان يستفحل ويزيد إلى أن أقعدني هنا أصارع الألم وأنتظر الموت في أي لحظة، لم أر ابنتي منذ أربعة أشهر، عمرها الآن أربعة سنوات، وزوجي لم يأت لزيارتي منذ أسبوعين، لقد تعب من التردد علي كل يوم لعله ملَّني أو كرهني؟

فلما سمعت علياء قصتها لم تتمالك نفسها وانخرطت في بكاء شديد ثم تمالكت نفسها وقامت إلى فاتنة تضمها إلى صدرها وتواسيها وتخفف عنها: لا تجزعي يا فاتنة فقد عرفتك شجاعة قوية، لا تقنطي من رحمة الله لا تستسلمي لليأس فقد يكتب الله لك الشفاء وقد يكون هذا ابتلاء فاستسلمي إلى قضاء الله وقدره واصبري فالصبر جميل والله مع الصابرين.

هدأت فاتن وأخذت تقول: عفوك يا رب.. عفوك يارب لم يبق لي سواك فهل تقبلني، رُحماك يا الله، ليته الابتلاء ليته، لا إنه الانتقام إنه الانتقام لأولئك الضحايا

الذين فتنتهم وأغويتهم، إنه الانتقام لأولئك الضحايا الذين فتنتهم وأغويتهم لكم تجاهلت كلام أمي الحنون كم تجاهلت كلام الناصحين المحبين... يا الله كم أغويت من شاب وأفسدت من فتاة، ثم أخذت تردد وتقول: اقترب مني يا موت، اقترب مني يا موت فلطالما خدعتني أوهامي لقد ظننت أنك لا تأخذ إلا الكبار والشيوخ وتترك الشباب، لقد خدعتني نفسي وغرني طول أملي ثم أخذت تسأل علياء: أصحيح يا علياء أن القبر مظلم؟ أصحيح يا علياء أن القبر ضيق؟

فتجيب نفسها: نعم صحيح.. وعما قليل سأحمل إليه جسدًا باردًا هامدًا هناك لن يموت معي أهل ولا أحباب.. ولن يكون معي مال ولا ثياب.. لن يكون هناك زوج ولا أصحاب.. يا الله كيف سأفارق صغيرتي سوسن.. أنا لا زلت صغيرة ولم أشبع من الحياة.. ثم أمسكت بخصلة من شعرها ثم قالت: أصحيح أنك ستتساقط في القبر شعرة شعرة.. ثم تلمست عينيها وقالت بكما أرى النور كم أسقطت بنظراتي من شاب أحقًا سيأكلكما الدود وينهشكما التراب؟!

أخذتها علياء بين ذراعيها وضمتها إلى صدرها وأخذت تقرأ عليها القرآن وتدعو لها بالشفاء وأخذت تقول لها: كفى يا فاتنة، كفى يا فاتنة، لا تقنطي من رحمة الله ولا تيأسي من شفاء الله.

فقالت فاتنة: أسألك بالله يا علياء أيغفر الله لي وقد فعلت ما فعلت؟

فقالت علياء بصوت واثق: وكيف لا يا فاتنة أليس الله واسع المغفرة.. أليس الله تواب رحيم ألم تسمعي قول الله: «**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعًا إنه هو الغفور الرحيم**».

فقالت فاتنة: بربك يا علياء لا تناديني بعد الآن فاتنة.. ناديني ظالمة ناديني ظالمة نعم ظالمة، لقد ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا ثم وبقدرة عجيبة استوت فاتنة على سريرها

ورفعت يديها إلى السماء وهي ترتجف ضالعة وأخذت تدعو الله برقة وخشوع: اللهم اشهد.. اللهم اشهد بأني قد رجعت إليك وأنبت إليك فهذه أنا طريحة على بابك.. اللهم إن كنت قد كتبت لي الشفاء وهذا ليس صعبًا عليك وقد أخفق الأطباء وعجز الحكماء فاشهد يا حكيم اشهد يا حكيم بأنني لن أعصيك أبدًا، اللهم وإن كنت قد قدَّرت عليَّ الموت عاجلًا فاشهد بأني لم أيئس من رحمتك ولن أقنط من مغفرتك طالما بقي في صدري نفس يتردد يا رحمن يا رحمن الدنيا والآخرة يا الله ظلمت نفسي ظلمًا كبيرًا ولا يغفر الذنوب إلا أنت إنك أنت الغفور الرحيم(*).

❀❀❀

(*) قصة للشيخ/ خالد الراشد نشرت بموقع «صيد الفوائد».

الدلع نهايته الفساد

توفي أخي قبل سنوات تاركًا وراءه طفلًا وطفلة لم يتجاوز عمر أكبرهما سنتين، وتزوجت أمهما بعده فبقيا عند والدتي وإخوتي يولونهما جل اهتمامهم ويغدقون عليهما من الحب والحنان والرحمة الشيء الكثير، ولكن مع الأسف كان حنانًا زائدًا ورحمة زائفة أفسدتهما علينا فنشأ عكس ما كنا نتمناه.

شعرت بهذا الشيء منذ رأيت بوادره، فحاولت تنبيه والدتي وإخوتي إلى التخفيف من هذه الرحمة وشد الحبل قليلًا إلا أنهم غضبوا مني واتهموني بقسوة القلب، فلمن تنفجر ينابيع الحب والرحمة إن لم تنفجر لمثل هؤلاء الأيتام؟!

إنهم يفسدونهما حقًا، ولكنهم لا يشعرون، يرون أن تلبية طلباتهما والاستجابة لرغباتهما هو جزء من التخفيف من معاناتهما وإدخال البهجة إلى قلبيهما!! وتعويضهما عن غياب الأب وبُعد الأم!!

فمنذ كانا صغيرين (باسم سنتان) و(غادة سنة) وهما لم يسمعا كلمة (لا) أبدًا أو (عيب) ولم يسمح لأحد أن يتسبب في بكائهما وكانت خادمتهما تسير معهما كالظل حتى لا يسقط أحدهما أو يؤذي نفسه أو يؤذي غيره، وهذا أمر قد يبدو طبيعيًا نوعًا ما ولكن كبر معهما حتى ما عدا يتحملان نسمة الهواء تعبث بخصلات شعرهما أو تهز طرف لباسهما.

الدلال سيقضي عليهما حقًا وسيدمر مستقبلهما، باسم اليوم لا يريد الذهاب إلى المدرسة، ودونما سبب مع أنه في الصف الثالث الابتدائي ومستواه ممتاز وأساتذته يحبونه، والذي لا نستطيع رد طلبه، ومحاولات إخوتي في ثنيه عن الغياب غير مجدية، لذا تركوه يفعل ما يحلو له، فهم لا يحبون مضايقته أو إغضابه، هكذا تعوَّد ونشأ.

كان يضرب الأطفال الذين لا يعجبونه، أو الذين لا يعطونه أشياءهم أو الذين لا يودون مشاركته اللعب فتزداد نفرتهم منه فيزداد غضبه منهم فيقوم أحد إخوتي بإرغام الأطفال على اللعب معه أو إعطائه ما يود حتى لو كان خالصًا لهم وقلوبهم معلقة به، وأحيانًا يضربون من يضربه وينهرون من يشاكسه ظنًا منهم أن في هذا رحمة له وحنانًا عليه، ولقد تعدى الأمر الصغار إلى الكبار فهو ربما استهزأ بامرأة في مثل سن والدتي وقلد مشيتها أو حركتها أو سحب عباءتها وهي تسير متجهة إلى الباب فيواجه فعله بالضحك واللامبالاة.. دون إشعاره بخطئه وإفهامه حسن التعامل مع الآخرين خاصة الكبار بحجة أنه صغير وأنه لا ينبغي جرح مشاعره وكسر قلبه أو قهره.

غادة ما زادها الدلال إلا تميعًا وعنادًا وإصرارًا على رأيها وهي بعد لم تتم الثامنة، فكثيرًا ما تسكب الحليب على السفرة حين تحاول والدتي حثها على شربه صباحًا قبل الذهاب إلى المدرسة، ولما وجدت حقيبتها التي اشترتها بثمن غال تشبه حقيبة إحدى البنات في المدرسة رفضت أخذها في اليوم التالي وبكت حتى تم شراء حقيبة أخرى لها. وهكذا كل يوم تبدل أقلامها وأغراضها وأحذيتها لأنها ملت منها وتود الجديد.

إنهما باتا لا يراعيان لأحد حالًا، ربما أنهما صغيران الآن ولكن البوادر لا تبشر بخير أبدًا، فبرغم ما تبذله أمي لهما من العطف والرحمة والجهد والمال والوقوف معهما ومساندتهما إلا أنها في نظرهما ملزمة بذلك فلا يحترمانها البتة ولا يتعاملان معها كجدة لهما، بل إنها كمربية يحق لهما ضربها والاستهزاء بها وتسفيه رأيها ومعاندتها عند كل طلب، وهذا أمر لا يستنكر منهما فهي التي دفعتهما لذلك بدلالها الزائد، فطوال السنوات التي مضت لم تضربهما مرة واحدة، بل لم تنهرهما ولم تؤدبهما وكانت تحث الآخرين على تحمل خطئهما وأذيتها حتى لو تجاوزا الحد، ولم تكن تمنع عنهما ما يشتهيان حتى لو كان فيه ضرر عليهما، ولم تلزمهما يومًا بأمر فيه مصلحتهما بحجة أنها ترحمهما

وتشفق عليهما، لا أب ولا أم يملآن فراغ قلبيهما ويفيضان عليهم الحب والحنان والمودة الصادقة.

إن ما نراه اليوم فيهما من سوء خلقهما وكثرة بكائهما وازدياد طلباتهما وعنادهما وتعدي الأمر الحدود الطبيعية المحتملة لهو نتيجة متوقعة لما أحيط بهما من الدلال الزائد والرحمة القاتلة، فهل يمكننا تدارك الوضع حتى ينشئا قادرين على مواجهة الحياة والخوض فيها، أرجو ذلك حقًا(*).

«أبنكم»

❀❀❀

(*) مجلة «الدعوة».

ومن الحسد ما قتل

أخي مسكين، سيقتل نفسه إن لم يتداركه الله بتوبة من عنده تطهر قلبه وتشفي سقم نفسه، فهو كالنار يأكل بعضه غيظًا وكمدًا، يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله فلا تراه إلا مقللًا من قيمة من علا شأنه وذاع صيته أو مستكثرًا رزقًا رزقه الله أحدًا من خلقه.

كم يثير في نفسي الشفقة فذهنه دائمًا مشغول بأمور الناس إن سمع خيرًا تغيظ وفار وإن سمع شرًا رأيت علامات الارتياح في وجهه!! ترى كم يحمل في صدره من الهموم؟! لله در الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله، فهو في غم وهم ما دام الناس في سعادة وحبور..

عدنا من وليمة أعدها ابن عمي بمناسبة ترقيته في العمل فكان طول الطريق يعيبه ويقلل من شأنه ويقول إنه لا يستحق هذه المرتبة فغيره أولى منه، وكأنه كان مشرفًا عليه في عمله ليعرف مدى إخلاصه واجتهاده!! ألم يكن من الأولى أن تفخر به وتثني عليه خاصة أن زوجتك معنا؟، لكن مثلك لا يتوقع منه غير هذا!.

زوجي وأخوه يملكان استراحة يؤجرانها للمناسبات بمبلغ يتراوح بين الألف والألف وخمسمائة بحسب المواسم ولما أرادت أختي أن تحجزها لتقيم فيها حفلة بدأ يقلل من قيمتها ويقبحها في نظرها: مثلها لا يساوي ٤٠٠ ريال، وهما يستغلان الناس، ألا تري إلى مجالسها صغيرة، لا تكفي ضيوفك، وممراتها ليست جيدة ثم لماذا وسّع في مساحة العشب وضيَّق الممرات.

لقد تراجعت أختي عن حجزها وكنت قد أشعرت زوجي به، فكان موقفًا محرجًا أن أقامت أختي حفلها في استراحة دلَّها عليها أخي لا تضارع استراحتنا وتماثلها في

السعر!! فكانت الزائرات يتساءلن لماذا لم تجعله في استراحتكم فهي أجمل والمساحات الخضراء أكبر؟!

كم تمنيت أن أواجه أخي في ذلك الموقف لأصرخ في وجهه بملء فمي أنت حاقد وإلا أين المصلحة لك في هذا كله؟ إنه يعلم أن لي نسبة من قيمة الإيجار إن جاء الزبون من طريقي أنا، ومع ذلك يفسد علي فرحتي..

كم من المواقف المخزية التي فاح فيها حقده ومع ذلك لا يبالي، قال لأختي الصغرى التي تسافر كثيرًا مع زوجها: ما هذا السفر، إنه تضييع للمال، دائمًا تسافران ويترك زوجك والديه. هو يعرف تمام المعرفة أن والدي زوجها مازالا في أتم عافيتهما، وأنهما يسافران متى شاء أو أنهما لا يحتاجان أبناءهما من ضعف أو كبر زادهما الله عافية وشبابًا ولكن يقول ذلك لما غاظه أمر سفرهما الكثير فلماذا يسافران بينما يبقى هو حبيس البلد لأسباب كثيرة ليس منها أبدًا والدي ووالدتي.

لقد ضرب كفه في الأرض صارخًا: والله هذا ظلم حين علم أن خالي اشترى سيارة جديدة وفاخرة من أين له كل هذا المال ليشتري سيارة كل عام أنت تعلم أنه موظف كبير وعنده بعض الاستثمارات، ابذل الأسباب وزد من دخلك الشهري واشتري لك سيارة جديدة، أو احمد الله على النعمة واترك مراقبة الناس وتتبع أخبارهم.

جمعنا مجلس العائلة ودارت الأحاديث ورقى إلى سمعه ما وصل له ابن أختي يوسف من حفظ القرآن ودخول المسابقة الكبرى وحصوله على المركز الأول ونال مكافأة مالية وعينية كبيرة كانت محط أنظار الجميع، فلمعت عينا أخي وتلونت إلى اللون البنفسجي ثم الأحمر وراح يعيب على ابن أختي تصرفاته وأنه دائم اللعب والمشاجرة مع الآخرين ومصاحبته للفساق، وأن ما حصل عليه من المركز الأول في حفظ القرآن نتيجة لمكانة والده الاجتماعية وليس عن استحقاق الولد المجتهد.

وضاعت الفرحة داخل المجلس على ما ناله ابن أختي ولم تستطع أختي أن ترد على هذه الافتراءات إلا بالدموع التي انسابت من عينها وعندها عادت عيني أخي إلى وضعها الطبيعي بعد أن نفَّث عما بداخله وأحبط الفرحة من الوجوه.

يا لتعاسته! إن هذه المضغة في جسده تكاد تصدأ وتتعطل ويعلوها الران لما يحملها من هموم هي في غنى عنها، لا تنتفع بها ولا يوجد لها منها مصلحة فتسف عليها أتربة الحقد السوداء وينفث فيها الشيطان فتصبح فاسدة، خاوية لا تنتفع بذكر ولا بموعظة كل همّه ألا يرى الناس بخير ولو كان يملك لحاز الرزق له ولأبنائه وزوجته ومنع الآخرين، يرى حبة الشعير في بيت غيره ولا يرى تلال القمح في بيته، لا يعرف فضل الله عليه ولا يشكر نعمته فقلبه مجهد وعقله كليل وذهنه مشغول لذا فهو يشيخ قبل الأوان وتعتريه الأمراض والأسقام، وتصطرع بداخله الهموم والأحزان فيأكل بعضه ويحرق نفسه..

هل تحب أن تكون كذلك؟! إنه حال مؤسف وواقع مؤلم فراجع نفسك وداوِ قلبك، شفاك الله وعافاك(*).

«أختك»

❀❀❀

(*) مجلة «الدعوة».

الصابرة المحتسبة

امرأة توفي عنها زوجها ولديها ٥ أولاد و٣ بنات في حادث سيارة أليم، وأكبر أولادها لم يزل في المرحلة الابتدائية وكانت أحوالهم المادية سيئة للغاية فقد كانت تسكن في قرية نائية جدًا عن العمران ولا توجد لديهم أي وسيلة مواصلات وكان التقاعد الذي تصرفه هذه المرأة على أبنائها الـ٩ مبلغًا جدًا زهيد... فكانت هذه المرأة تقطع المسافات البعيدة على رجليها لإحضار أي شيء من المدينة برفقة أحد أولادها الصغار...تقدم لخطبتها الكثيرون لكنها رفضت وآثرت قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «**أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة...**»؟.

امرأة معروفة بتدينها فربت أولادها وأنشأتهم نشأة دينية وكانت تهون عليهم ما هم فيه من ضنك العيش بأحاديثها عن الآخرة وما أعد الله للصابرين فيها فتصبر نفسها وأولادها بما وعد الله؟الذي يحدثكم الآن هو الابن الرابع لهذه الأم...نعم فأنا فخور جدًا بأمي...ولما علم من صبر هذه الأم وتجلدها على الحياة..قال لي أحد الأشخاص: والله العظيم لو كانت هذه أمي لنسبت اسمي إليها مفتخرًا بها؟ كانت والله لنا هي الأم والأب فهي تقوم بكل أعمال البيت في الداخل من تنظيف وطبخ وحنان الأمومة مع قسوة الأيام؟ وتشترى لنا حاجاتنا من السوق على رجليها فتصل وهي منهكة فنكمل والله باقي شؤون المنزل؟ وهي محدثتنا وشيختنا؟ وهي كل أقاربنا بعد ما تخلى عنا معظم أقاربنا حتى شقيق أبي الوحيد الذي لم يكن يسأل عنا بحجة رفض أمي الزواج منه؟.

لقد ثمن الله تعب هذه المرأة وكبرنا أنا وإخواني والحمد لله ومنَّ الله علينا بوظائف.وانتقلنا جميعًا إلى الرياض...لابد أن أطيل عليكم فوالله لو كتبت ألف صفحة

أشرح فيها معاناة أمي مع هذه الحياة لن أوفيها حقها؟ ولكن سأذكر لكم إحدى قصصها عندما توفي ابنها الذي يصغرني ب٣سنين وهذه الحادثة قبل سنين قليلة...أبدأ وأقول: غاب أخي عن المنزل بضعة أيام وكان عمره ما يقارب ٢٢ سنة وكان أحب شخص في البيت لأمي؟ بحثنا عنه في كل مكان فلم نجده وبلغنا عنه قسم الشرطة وأمي ما تزال في دعاء لله عَزَّ وَجَلَّ....وذات يوم ذهبت إلى البيت وأنا خارج من العمل فوجدت أخي واقفًا على الباب ينتظرني وهو في حالة خوف شديدة وقال: أتاني هاتف من شرطة (خريص) وقال احضر فورا..؟ على الفور أخذته وذهبنا مسرعين إلى ذلك القسم وأخذنا ما يقارب الساعتين في الطريق.... وعندما وصلنا وجدنا سيارة أخي واقفة عند باب الشرطة سليمة وليس فيها أي خدش وعندها تضاحكنا أنا وأخي فرحًا وظننا بأن أخي ربما كان مخالفًا لأنظمة المرور وأنه في التوقيف؟.

ولكن الخبر جاءنا كالصاعقة عندما علمنا بأن أخي أوقف سيارته على جانب الطريق وقطع الشارع إلى الناحية الأخرى لا ندري لم؟ وعند عودته فاجأته سيارة نقل كبيرة (تريلة) لتدهسه تحت عجلاتها....بكيت أنا وأخي كثيرًا هناك ولكن تهدئة رجال الأمن لنا هي التي جعلتنا نكتم غيظنا ونكمل باقي الأوراق وأخبرونا أن الجثة في مستشفى الملك فهد بالإحساء؟ عدنا إلى البيت ونحن نتساءل كيف سنخبر أمنا بالخبر وهذا أخونا (علي) ونحن نعلم مقدار حب أمنا له...؟ ولكن أشار علي أخي أن نذهب إلى إحدى خالاتنا ونأخذها معنا لكي تمسكها إذا ناحت أو أغمي عليها.. وفعلًا أخذنا خالتنا معنا وأخبرناها الخبر في السيارة فبكت فأجبرناها أن تكتم دموعها وأن لا تظهر الهلع أمامها فيشتد حزنها فقبلت ذلك... ومن شدة خوفي ولا أريد أن أرى أمي في هذا المنظر..نزلت خالتي وذهبت إلى ابن خالتي في البيت وما هي إلا دقائق حتى أتاني زوج خالتي وخالتي وأخي وكانت أمي معهم.... فسألت زوج خالتي: كيف أمي كيف

تحملت الخبر هل أصابها مكروه...هل...وأنا أبكي؟؟؟ فقال لي: أمك معنا أفضلنا نفسًا وأهدأنا حالًا..وتذكرنا بالله...هي أفضل منك بكثير أيها الرجل؟ فانطلقت إلى السيارة وأنا غير مصدق...ففتحت الباب وأنا أقول: أمي كيفك كيف حالك؟ فإذا هي مبتسمة راضية بقضاء الله وقدره ثابتة كالطود الشامخ...كما عهدتها منذ صغري لديها من اليقين بالله ما يهون عليها مصائب الدنيا....؟ مازالت تذكرني بالله وتقول: إنه أمانة وأخذ الله أمانته...؟ وأصبحت تهدئنا كلنا ووالله ما رأيت في عينيها دمعة واحدة بل تضحك...وتشكر الله؟ فقلت: يا أمي لقد مات عليٌّ مدهوسًا..إلى أين أنتم ذاهبون لا أستطيع أن أتخيل أنه مات فكيف تريدوني أن أراه وهو أشلاء فقالت: يا ولدي لا تخف فسوف أكون بجانبك.....؟؟؟.

يا الله أي امرأة هذه أي محتسبة هذه..أي جبل هذا الذي أستند إليه؟؟؟ الآن والآن فقط عرفت هذه السيدة..فوالله إنها هي التي تصبرنا...وتصبر خالتي وزوجها وأخي الأكبر في ابنها؟؟؟ الآن مسحت دموعي واستحييت من ربي ومن نفسي؟؟ إلى الآن والله لم أذكر لكم أي شي من القصة.....اسمعوا..كنت في الطريق أسأل نفسي يا ترى أتراها تصطنع ذلك..ماذا ستفعل إذا جد الموقف ونحن نرى الجثة في ثلاجة الموتى؟ دخلنا المستشفى وذهبنا إلى ثلاجة الموتى وكان معنا عمي وخالي...ذهبنا سويًا إلى الجثة وأنا أترنح في مشيتي وهي بقربي كالطود الشامخ...؟ أخرجوا الجثة، أنزلوها على الأرض وقال العامل هناك: افتحوها وتأكدوا منها والله ما استطاع أحد أن يقترب لكي يفكها؟ اقتربت أمي منها كما عهدتها تستغفر له وتسبح وتدعو له بالرحمة قال لها أخوها: ما تريدين أن تفعلي وأراد إخراجها وقال: لن تتحملي المنظر لم ترد عليه وما زالت في ذكرها مع الله وتفتح الأكفان عليه وأبعدت كل ما عليه وتقلبه يمينًا ويسارًا وتدعو له بالرحمة ووالله إننا كلنا متأخرون عنها خائفون مذهولون

حتى الشخص العامل هناك سألنا ما تصير له هذه المرأة؟ فأخبرناه أنها أمه فلم يصدق...وقبلته بين عينيه ودعت له ثم أرجعت غطاءه وأخذت ملابسه في كيس وهي تحمد الله وتشكره ووالله ما رأيت في عينيها دمعة..؟ وذهبت إلى السيارة وجلست في مقعدها تنظر إلى ملابسه تشكر الله وتحمده وتدعو لولدها.....وبعد أيام والله على ما أقول شهيد سمعت كأن ابنها يناديها من تحت قلبها وهي جالسة في اليقظة ويقول: يا أمي إن الملائكة تتسابق لكي تراني وأسمعهم يقولون: أين ابن الصابرة؟ أين ابن المحتسبة؟ والله لو كنت عندك يا أمي لقبلت أقدامك(*).

❀❀❀

(*) موقع «صيد الفوائد».

في بيتنا ضيفة شرف

تزوج أخي وبقي مع والدتي في نفس البيت بمحض إرادته. أعطته والدتي حرية الاختيار بين أن يبقى معها ويظل هو وزوجته في عينيها وبين أن ينتقل في بيت خاص ويظل في قلبها، فهي تحبه كثيرًا، إنه ابنها الوحيد ونحن جميعًا متزوجات، فاختار طواعية أن يظل معها، بل لم ير اختيارًا آخر.

والدتي جد طيبة، بل حنونة وصبورة، لا تشكو ولا تبكي، وتوزع ابتساماتها على كل من حولها، شهد لها القريب والبعيد بحسن الخلق ولين الجانب ومع ذلك ما وجدت من زوجة أخي تقديرًا لها أو إكرامًا لُخلقها، بل إنها - هداها الله - استغلت طيبة أمي أسوأ استغلال وكأنما تعاقبها على بقاء ابنها معها.

فهي سلبية في كل شيء، أنانية، تحب نفسها وتسعى لراحتها منذ شعرت أن والدتي تحفظ علاقتها مع ابنها من أن تلوثها الأقاويل أو تفسدها الأفاعيل وهي تعمل ما يحلو لها غير آبهة بما سيحدث لأنه لن يحدث شيء.

فأمي لا يمكن بحال من الأحوال أن تسمح لأحد فضلًا عن نفسها أن ينقل لأخي شيئًا ولو يسيرًا مما يحدث، ليعكر عليه مزاجه أو يفسد حياته، فهي تصبر وتداري وتبذل وتضحي في سبيل راحته ورضاه وهو لا يقصر عنها ولكنه لا يعلم شيئا، فليس له إلا ظاهر ما يرى، وخصوصًا أن في البيت خادمتين إحداهما موكلة بالمطبخ والأخرى بالأعمال المنزلية، فهو بهاتين الخادمتين قد كفل راحة أمي وزوجته وقضى على المشاكل في مهدها!!

إن ثلاث صفات هي التي تكون شخصية زوجة أخي (مهملة، جاهلة، وجامدة)، فهي لا تكاد تحرك ساكنًا ولا تمد يد العون لأحد، وتقول والدتي (إنها منذ

فترة طويلة لم تدخل المطبخ ولم تصنع طبقًا واحدًا أو حتى تطلب من الطاهية أن تعمله) هي أصلًا لا تسأل عن الطعام لأنها تقوم ببرنامج تخفيف الوزن، لذا فهي لا تدري عن أبنائها من أكل ومن ظل جائعًا، فمجرد قيامهم من النوم ينزلون مباشرة ويتجهون إلى جدتهم أمي ويطلبون منها صنع الإفطار هذا يريد فولًا والآخر يكتفي بخبز محشو والثالث يبكي لأن الحليب ساخن، قد يكون هذا شيئًا ممتعًا ولكن ليس دائمًا، فالسن لها أحكام، إن والدتي هي التي تغير لهم ملابسهم بعد النوم وقبله وهي التي تغير للصغيرة حفاظها وكم من مرة وجدته مبللًا لملابسها ومسببًا لها طفحًا جلديًا مؤلمًا.

إنها لا تكلف نفسها متابعة أبنائها في الدراسة مع أن الكبير مازال في الصف الثاني الابتدائي ولا يستطيع الإمساك بالقلم أو قراءة الحروف بشكل جيد، لقد جلب له والده (مدرسًا) لأن والدته لم تستطع تعليمه، وحين تنجز له عملًا مفيدًا، فإنها تكتب له الواجب دون مراعاة لأبسط قواعد التعلم وآدابه، يا لها من مهملة جاهلة. تبقى الساعات الطوال تتابع الأفلام والمسلسلات وتقرأ المجلات المريضة، ولا تكلف نفسها بضع دقائق لتحفظ ابنها سورة من القرآن أو تسمّع له نشيد المحفوظات.

إن الإهمال متأصل فيها، فأبناؤها يلعبون بالماء ويتراشقون في الحمام وهي تسمع وترى ولا تتحرك، وكم هي المرات التي وجدتهم والدتي فيها يعبثون بتراب الحديقة وطينها فيضعونه على رؤوسهم ويمسحون به ملابسهم حتى تعجز أقوى المنظفات عن تنظيفه، وكأنها لا تسمع عتاب أمي لهم ومناداتها للخادمة حتى تساعدها على تنظيفهم وتنظيف المكان على الرغم من أن غرفتها تطل على الحديقة.

حين تهم أمي بالخروج لزيارة أحد أو التبضع من السوق، فإنهم يتعلقون بها ويبكون بشدة مما يضطرها كثيرًا للعدول عن نيتها والبقاء في البيت، وإن كانت ملزمة بالخروج لحضور اجتماع عائلي مهم مثلًا، فإنها تضطر لأخذهم مع ما يسببه لها هذا من

إزعاج وإحراج لمضيفتها، ثم تبدأ بسرد المبررات الكثيرة لفعلها حتى لا يتهم أحد زوجة ابنها بسوء!! يالك من أم عظيمة، وأم زوج كريمة، ولكن ليتك كنت عند من تقدرك وتعرف فضلك، لقد ابتلاك الله بزوجة الابن لا ترحم ولا تستحي، ومن لا يستحي يصنع ما يشاء(*).

«ابنك»

❀❀❀

(*) مجلة «الدعوة».

المسئولة عن إفسادهم

صدمتني ابنة عمي كثيرًا حين قالت لي: لك أكثر من عشرين عامًا في الوظيفة ومع هذا لا يظهر أثر هذا عليك.

لقد فهمت مقصدها جيدًا، ذلك أننا كنا في حفلة زواج وكان عقدي إكسسوار ليس له قيمة ولم تكن في يدي ساعة ولا غيرها.

حقًا تخطيت العشرين عامًا في وظيفتي، ووصل راتبي إلى أكثر من عشرة آلاف ريال ومع ذلك لم أستطع الحصول على الكثير مما أتمناه أو حتى أحتاجه والسبب هو أبنائي خاصة الكبار فهم لا يرون في والدتهم إلا جهاز صراف آلي للمال فكلما أرادوا شيئًا فإن ما معي كافٍ لتحقيقه، والويل لي إن اعتذرت عن عدم القدرة أو أبديت عدم القناعة أو أكثرت عليهم اللوم فإن ما سيواجهونني به لن يقل عن تقطيب الحواجب وعبوس الوجوه ثم تكرير الأسطوانة المعهودة أمي مديرة مدرسة وأنا لا أملك هذا الشيء.

(نجلاء) في الجامعة و (عمرو) في المرحلة الثانوية حاجاتهما لا تنقضي أبدًا، يريدان دائمًا كل شيء جديد، يحبان التغيير والتطوير ومسايرة الموضة.

مكافأة (نجلاء) تقضي حاجات بنات كثير في مثل سنها في الجامعة، ولكنها لها لا تعني سوى بعض (الساندويتشات) والتسالي، حدثتها مرارًا أن تكتفي بمكافأتها وأن تعوَّد نفسها على حسن التصرف والتدبير وأنذرتها أنني لن أعطيها أكثر من خمسمائة ريال شهريًا زيادة على المكافأة ولكن... كيف يحدث هذا وأمي مديرة مدرسة كل صديقاتي يغبطنني على ذلك ويقلن لي ليس غريبًا منك مادامت أمك بهذا المركز، يحق لك هذا الاستعراض!!.

اقتنيت هاتفًا نقالًا فأخذته مع عدم حاجتها له وأساءت استخدامه فهي تحدث صديقاتها وترسل لهن رسائل بحاجة وبدون حاجة حتى وصلت فاتورتها لثلاثة آلاف ريال!!

أخذته منها وحرمته منه ولكني عدت أمام إلحاحها وكثرة توسلاتها فصديقاتها يعيرنها بشدة بخل أمها!! فعادت حليمة لعاداتها القديمة.

قمصانها وحقائبها وأحذيتها واكسسواراتها ولوازم الجامعة كلها تكلفني الكثير.. بت أؤمن حاجتي في حاجتها لم أعد أفكر فيما ألبس فالمهم ما تلبس هي وما يرضيها.. تشتري قميصًا رسميًا للكلية بمئات الريالات وأشتري أنا بالعشرات. أبحث عن محلات التخفيضات وأماكن البضائع المخفضة لأكمل بعض مستلزماتي من أحذية وحقائب وملابس للبيت وأخرى للعمل بينما لا ترضى هي بهذه الأماكن فهي بنت المديرة!

رصدت مبلغًا لشراء ساعة قيِّمة ألبسها في يدي بدل هذه الساعة القديمة المتهالكة فأصغر معلمة في مدرستي لم يمض عليها سوى سنتين في الخدمة ترتدي ساعة بأكثر من عشرة آلاف ريال قيمة راتب شهر كامل وما أن علمت نجلاء حتى غضبت فهي منذ مدة تلح علي لشراء ساعة لها وأنا أرفض بحجة عدم القدرة في الوقت الحاضر ثم ها أنذا أفكر في شراء ساعة!!.

وأمام إلحاحها بحجة أنني مضى علي الزمان وما عادت هذه الأشياء تناسبني أو تلفت إلي الأنظار وأنه يمكنني الاكتفاء بالتقليدية، اشتريت لها الساعة التي تريد وأضفت إلى المبلغ ألفًا أخرى، وأنا اشتريت ساعة تقليد بمئة وخمسين ريالًا!!.

لديها خزانة كبيرة مخصصة للحقائب والأحذية فقط وأخرى تغص بالملابس بل إنني أشتري عباءتي بينما تفصل هي عباءتها وطرحتها وخمارها!!.

وعمرو ليس أحسن حالًا منها، فالسيارة شبابية أمريكية مضافة إليها إكسسوارات وزينة كلفتني الكثير، فوالده لم يدفع ريالًا واحدًا لأنه لن يحتاج إلى قيادتها كما يقول. ولا أنسى الهاتف المحمول الذي يجدد كل فترة والنظارات الشمسية بالمئات، والملابس والأحذية والحقائب الرياضية دائمًا يحب المزيد حتى باتت غرفته مثل محل لبيع أرقى الملابس الرياضية.

وهو حاتم الطائي في الكرم، فهو صاحب الولائم الكبيرة والموائد الممدودة لزملائه وشلته في المطاعم والاستراحات وعلى الرصيف لذا فهم حوله كثير يتذوقون الهامبرغر والبيتزا كل يوم من مكان ومن المعيب أن تكون أمه بهذا المركز المرموق ويتطفل على زملائه من أجل حبة همبرغر أو قطعة بيتزا أو قضمة شطيرة!!!

إنني أشكو حالي لله فلم يبق لي الأبناء شيئًا، أفلسوني وامتصوا آخر قطرة من راتبي، ترى ما السبب؟! الموظفات كثير وليست هذه معاناة الجميع!

إن المسئول عن هذا الحال هو أنا وليس أحد سواي، لقد دللتهم كثيرًا وعودتهم ألا أرد لهم طلبًا منذ كانوا صغارًا، بل كنت أبحث لهم عن التميز في هيئتهم ولباسهم وتسوقهم حتى في البراية والمسطرة، فالله المستعان(*).

«أمكم»

❀❀❀

(*) مجلة «الدعوة».

التدليل الزائد عن الحد

هل هذا الذي يحدث مع أختي هو إشكالية يقع فيها الأبوان غالبًا؟ هل استنفدا طاقتهما في تربيتنا وتوجيهنا وتعويدنا العادات الحسنة والصفات الحميدة؟ ثم لما جاءت أختي وكانت خاتمة الذرية كانا قد أنهكا أنفسهما فاستسلما طواعية واختيارًا لها ولرأيها ولمزاجها؟ أم أن القلب يذوب حبًا كلما ازدادت نار العاطفة بزيادة الأولاد وزيادة السنين؟

لقد أصبح قلب والدي لينًا أمام دموعها ضعيفًا أمام توسلاتها، وهو الذي كان يثبت على مبدئه مهما حدث وتنفذ كلمته حرفيًا (ولا تنزل إلى الأرض). قد أعتب على والدي الآن في أمر قد أقع فيه لاحقًا ولكنني أرجو أن أتوسط في أموري كلها.

لقد تعودنا منذ صغرنا الحزم في كل شيء، والأدب مع الكبير، وأن نحترم رغبة والدينا وأن نؤثر إخوتنا، تعلم إخوتي علوم الرجال، وتأدبنا بالحياء والحشمة فكنا ولله الحمد والمنة مضرب المثل بين أقراننا.

ولكن لما جاءت ناهد غردت خارج السرب بعيدًا ونزعت جلباب والدي وطبعت حياتها بطابع مختلف وشذت عن القاعدة فهي تجلس أعني تتمدد أمام التلفاز وفي حضور والدي ووالدتي ولا يقولان لها شيئًا في حين تعودنا ألا نمد أرجلنا في حضور من هم أكبر منا سنًا وقدرًا وبخاصة الوالدان، وإذا انتقدناها أو طلبنا منها تعديل جلستها نهرنا أبي قائلا: دعوها تفعل ما تشاء لا تغضبوها!!.

كان هذا وهي صغيرة والآن كبرت وشبت عن الطوق وكبرت معها هذه العادات فما عادت تحترم كبيرًا أو تسمع لنصيحة أو حتى تنتظر من أحد أن يبين لها خطأها أو يفند رأيها فسلاحها الدموع والبكاء والصراخ مما يثير غضب والديَّ ويقلق راحتهما فيتركانها وشأنها ويعاتبانا ممن كان سبب إغضابها..

جئت في زيارة أهلي ذات مساء ووجدتها تمسك الهاتف وتتحدث بشكل مريب،

خشيت أن يكون في الأمر شبهة فحاولت أن أوجهها بلطف طلبت منها أن تغلق السماعة فأنا قد حضرت لزيارتهم، ردت بكل برود: خير وإذا كنت في زيارتنا يعني لا نحدث صديقاتنا، ما أقبح من يحشر أنفه فيما لا يعنيه أكلم لمياء هل تريدين التأكد من ذلك؟.

لقد تساهل معها والدي كثيرًا وشجعته والدتي رحمة بها وحبًا لها، فمتى كنا نذهب لزيارة صديقاتنا أو نحضر حفلاتهن، إن ناهد تفعل ذلك بمباركة والدي، بل صارت دائمة الخروج كثيرة الزيارات لصديقاتها فهذه دعتهن لحفلة نجاح، والأخرى لتعرفهن بقريباتها وثالثة دعتهن لأنهن اشتقن لبعضهن كثيرًا، وغيرها من المناسبات التافهة، وهي تخرج دون أدنى مراعاة لأصول الزيارة تذهب متعطرة متبرجة في أبهى حلتها، بل إنها ترفض تمامًا أن ترافقها والدتي أو إحدى أخواتي وتعد ذلك عيبًا وشيئًا في حقها.

ومن أجل سواد عينيها أدخل والدي القنوات الفضائية ولأجل سعادتها سمحت لها والدتي بارتداء عباءة الموضة وحتى لا تغضب أو تتضايق، أذنا لها بأن تلبس ما تشاء ما لم يكن فاضحًا جدًا، فهي تلبس البنطال والقميص بدون أكمام، وتصبغ شعرها بشتى الألوان أسوة بزميلاتها حتى لا تتعقد!!.

إن كلمة صغيرة عاتبة أو غاضبة توجه لها من أي واحد منا تعني أننا نتدخل في شؤونها ونريد أن نتحكم في حياتها ونسيطر عليها لأنها الصغيرة وهي محل إيثار والدي فتبدأ بالصراخ ورد الكلمة بعشر والبكاء والاحتماء بوالدتي والاستناد إلى والدي حتى ينقلب النصح إلى فضيحة ويندم من كان قدمه لأنه لم يحصل على رضا والديه ولم يغير من الواقع شيئًا. كم أتمنى أن تدرك ناهد أنها بهذا المسلك تخسر الكثير فلقد اعتدنا احترام والدينا وعدم توجيه الحديث إليهما مباشرة، وهما يظنان أن معاملتهما لها تسعدها، وهي طريق إلى الشقاء ما لم يتداركها الله رحمته، أرجو أن تعي كلامي جيدًا(*)!

«أختك»

(*) مجلة «الدعوة».

صابرة تتألم ولا تشتكي

ما أضيق العيش وما أبأسه لولا الصبر، فبالصبر نرى الحياة في أبهى صورها، وأجمل حللها، وكلما اشتدت الأزمة وضاقت الأرض انبلجت خيوط النور من كهوف الظلام تبدد الغلس وتنشر الرحمة. ولكن من منا يملك مفاتيح هذا الصبر؟ ومن منا يقدر على التحلي به والاستمساك بحبله؟ إنهم قلة، بل ندرة في هذا الزمن الصعب الذي عمت فيه البلوى وكثرت الشكوى وأختي مشيرة ربما واحدة من هؤلاء، هي أختي الكبرى، أنا في سن أبنائها، فهي لي مثل أمي.

قبل سنوات مرضت ولكنها لم تشتك، وكثر ترددها على المستشفى والأطباء فحوصات وتحاليل وأشعة ولا تقول شيئًا سوى (الحمد لله إن شاء الله بسيطة).

كنت أراها تذبل بسرعة كوردة تعيش لحظاتها الأخيرة، حاولت مصارحتها بما في نفسي إلا أن قوتها وثبات قلبها وابتسامتها الدائمة منعتني من ذلك. اتصلت بي ابنتها ذات يوم تخبرني أنهم نقلوها إلى المستشفى في حالة إغماء، هرعت لزيارتها والاطمئنان على حالها فإذا هي شبه فاقدة للوعي، تتنفس بصعوبة شاحبة الوجه ولكنها تتمتم: الحمد لله!!.

أخذت عهدًا ألا أخرج من المستشفى حتى أعرف ماذا حل بأختي، فأبناؤها لا يخبرونني بشيء والبنات يبدو أنهن لسن أحسن حالًا مني لذا عزمت على البحث عن الممرضة المسئولة وسؤالها عما سجل في الملف، ظلت أسأل وأستفسر حتى ظهرت الحقيقة وانكشف المخبوء، يا الله. هذا ما كنت أخاف منه، بل ما شككت فيه، يا لها من امرأة كالحديد تتألم ولا تشتكي، كل هذا الألم وهي صامتة، وكل هذه الشدائد وهي صابرة، إنه المرض الخطير ينتشر في جسمها ببطء، يتلف أجهزتها الداخلية ويدمر أعضاءها.

لقد قرر لها الأطباء العلاج الكيميائي وبدأت الحيلة تبور والسبل تضيق، وانتهت بنا الآمال وتقطعت الحبال إلا أنها تزداد ثباتًا ويقينًا ويزداد وجهها تهللًا وإشراقًا، لا تنقطع عن ذكر الله وحمده وتسبيحه. أزورها تسبقني دموعي وعبراتي فأخرج من عندها وقد تلقيت درسًا قيمًا في قوة الإيمان وشدة البلاء، أزورها وأنا أحمل طاقة ورد أو سلة حلوى حرصت أن تكون من النوع الفاخر وأخرج من عندها وقد زهدت في الدنيا وعلمت حقارتها وتفاهتها.

دائمًا تحمد الله ولا تنفك الابتسامة عن وجهها، تحزن حين يسألها أحد عن مرضها فهي ترى الحديث في هذا من الجزع والسخط، انتهى علاجها وخرجت من المستشفى وبدأت تمارس حياتها بشكل طبيعي جدًا، أعلم أنها تقاوم كثيرًا ولكنها شجاعة فهي لا تحب الاستسلام أو الانهزام. أبدت لي رغبتها في زيارة بيت عمي، قلت لها (ولكنك مازلت مريضة، والحق أن يأتوا هم لزيارتك) سكبت جوابها ألمًا في مسامعي (اليوم أنا معك وغدًا ربما لا أتمكن من ذلك، دعيني أكسب أجر صلة الرحم في هذا اليوم، من يدري ماذا يحدث غدًا). تحاملت على نفسها وذهبنا معًا لزيارة عمي فكانت تحدثهم وتسامرهم كما عهدوها لم يتغير فيها شيء. حين يشتد عليها المرض تبقى في بيتها تقرأ القرآن أو تسمع لشيء مفيد أو تنزوي في غرفتها تدعو تكثر من الذكر وإن تمكنت صلت ما شاء الله لها أن تصلي، وإن انجلت عنها الغمة استقبلت جيرانها أو خرجت في صلة رحم أو زيارة مريض أو تعزية أو تهنئة.

لا تسمح مطلقًا لأحد أن يلقي عليها عبارات الحجر والتضييق (افعلي كذا، اتركي كذا، عليك بكذا..) مما لا يصح أو لا يجوز، بل تبادر بنصح زائريها بتقوية صلتهم بالله دائما وعلى الأخص في مثل هذه الظروف، والحمد لله وشكره على كل حال، وأن المصيبة الحقيقية في الدين والعقل وما دام الله قد حفظ علينا ديننا وعقلنا

وأنعم علينا بهذه النعم الظاهرة والباطنة، فالواجب علينا حمده وشكره والاعتراف بفضله والتقرب إليه بالنوافل والفرائض أولًا.. و... فهي تقدم لمن يزورها دروسًا علمية إيمانية مجانية لا تبغي من أحد جزاء ولا شكورًا.

لله درها ما أشد ثباتها اللهم زدها ثباتًا وارفع منزلتها في عليين، هكذا عرفتها منذ وعيت على الدنيا لم تشك وحمًا ولم تجزع من حمل ولم تتسخط من الولادة، ما قالت مرة في زوجها ما يغضب الله، ولم تشكُ من بناتها وأبنائها (فالحمد لله والشكر لله والله يديم النعمة ويرزقنا شكرها) ما كانت ترده مرارًا، لقد جاء هذا المرض الخطير ليصقل معدنها ويبلو أخبارها ويمحص إيمانها ويبتلي صبرها فزادها قربًا من الله.

لعل الله أن يكفر بهذا المرض ما كان من ذنوبها وتقصيرها وأن يرفع درجتها، فأمر المؤمن كله له خير(*).

«أختك»

❀❀❀

(*) مجلة «الدعوة».

كيف أصبحتُ مَلِكة؟؟!!!

كانت فتاة وضيئة الوجه،هادئة، وديعة،متسامحة، رقيقة، على خُلُقٍ قَويم، واسمها (رحاب)، وكانت تقطن بجوارنا...فكنا نذهب إلى المدرسة ونعود سوِيًا، وكانت أحاديثنا في الغالب لا تتعدى أخبار المدرسة والدراسة، والأخبار العامة لأسرتها وأسرتي، والمسلسل التليفزيوني، وأغاني المطربة فيروز. ولم تكن رحاب تتحدث معي في الدين إطلاقًا، ولكنها كانت تفعل شيئًا كان في البداية يُدهشني، ولكنه مع مرور الوقت وتكراره كان يُشعرني بوَخز الضمير!! فقد كانت تحرص بين الحين والآخر على أن تعيد ربط غطاء الرأس (الإيشارب)، ليصبح حجابها مضبوطًا...فلا تظهر منها شعرة واحدة!! وكنت على العكس منها أحرص يوميًا على تغيير تسريحتي، بل وتغيير لون السُترة التي أرتديها فوق الزى المدرسي لتناسب لون الحقيبة المدرسية!! وأصبح ما تفعله رحاب مع الوقت يؤلمني، بل ويدفعني إلى التفكير: لماذا تفعل رحاب ذلك؟!!.

وما هذا الحرص الشديد على كل شعرة لديها؟!!! وبدأت أفكِّر لماذا هي كذلك ولماذا أنا كذلك؟ ومَن منَّا على الحق، وَمن مِنَّا على الباطل؟!!!! لقد نشأتُ في أسرة مُحافظة متدينة تقدِّر الأخلاق كثيرًا، وكانت كلمة (حرام) في بيتنا تعني أن هذا الشيء بشع ولا يجوز فعله على الإطلاق....ولكن أمي لم تكن ترتدي الحجاب، وكذلك قريباتي وجاراتي وغالبية زميلاتي بالمدرسة وجميع المدرِّسات بالمدرسة.. فلماذا نلتزم بكل تعاليم ديننا ما عدا الحجاب؟؟!!! فهداني ربي إلى التفكير في أن هذا هو التقليد الأعمى للاستعمار الذي غزا بلادنا كي ينهب خيراتها، ثم يغزو عقولنا وقلوبنا، ويوهمنا أنه أفضل منَّا... وبما أن الطبيعة البشرية دائمًا تتطلع إلى الأفضل، فهي تميل إلى أن تقتدي به وتقلِّده.... وتذكَّرتُ نساء الجاهلية في المسلسلات الإسلامية،لقد كُنَّ يرتدين

الحجاب، ولكنهن كُنَّ يُظهِرن خصلة من مقدمة الرأس، ومكان القلادة.... فقط!!! إذن نحن أسوأ من نساء الجاهلية الكافرات!!! وبدأت أشعر بخطورة الأمر، إن رحاب تطيع أمر الله، وتقتدي بالصالحات من المؤمنين، ونحن نطيع الشيطان وأعوانه من البشر، ونلتزم بسُنَّة الكفار من المستعمرين!!!.

وبدأت أشعر بالخِزي من ربي...ماذا سأقول له حين ألقاه إذا سألني: لماذا لم ترتدي الحجاب وقد أمرتُكِ به؟!!!! هل سأقول له: لأنني اتَّبعتُ الكفار وأعرضتُ عن سُنَّة الرسول ﷺ ؟!!! وماذا فعل بنا الكُفر،وماذا فعل بنا الرسول ﷺ ؟!!!.

فأي الفريقين أحق أن أتَّبِع؟!!! أم لأنني آثرتُ هواي على أوامره؟!! وكيف ذلك وهو الذي خلقني بيديه وهداني للإسلام،وأعطاني من النِّعم ما لا أستطيع أن أحصيه؟!! أم لأنني أكثر جمالًا بدون الحجاب؟!! وكيف سيكون جمالي حين أُلقى في النار بسببه، وحين أُعلَّق من شَعري في جهنَّم؟!!! أم لأنني أحب الأزياء والموضة؟ إن الحجاب لا يمنع أن أكون أنيقة. أم لأنني أخشى أن تسخر مني زميلاتي أو صديقاتي؟ فهل ستحمل عني إحداهن شيئًا من العذاب يوم القيامة، أم ستقول: نَفسي....نَفسي؟!!! وبدأت أشعر بأن الحجاب شيء حتمي وأنني لابد من أن أرتديه عاجلًا أو آجلًا. وأصبحتُ بعد ذلك أسمع الأذان بشكل مختلف...لقد أصبحت أُصغي إليه بقلبي!!! وصِرتُ كلما سمعتُ الأذان تذكَّرتُ الآخرة، وتذكَّرتُ المَوت الذي يأتي في لحظة لا نعلمها ولا نتوقَّعُها...وبدأت أشعر بالخوف الشديد من أن يأتيني الموت قبل ارتدائي للحجاب!!! بل والأكثر من ذلك، لقد صرت أشعر أن النداء حيَّ على الفلاح يقول لي: هيا إلى الحجاب!!!!.

فبدأت أحاول تجربة شكلي بالحجاب أمام المرآة،وأتحدث إلى نفسي: هيا تشجَّعي،إن شكلك بالحجاب ليس أسوأ بكثير...كما أن جمالك لن يشفع لك عند ربك،بل سيصير قُبحًا إذا دخلتِ جهنم بسببه،هيا أقبِلي،ففي الجنة ستصبحين أجمل من الحور العِين كما سمعتُ من أبي.. هيا أطيعي الرحمن واطردي وساوس الشيطان وقرَّرتُ أن أجرِّب نفسي، خوفًا من أن أرتديه، ثم أخلعه... فأصبحت أكتفي بتسريحة واحدة، تضم الشعر من الخلف، ثم أصبحت أرتدي الكم الطويل وكنا مقبلين على فصل الصيف فكنت أهم بتشمير قميص المدرسة مرارًا وتكرارًا كلما تضايقتُ من الحرّ، ولكني كنت أقول لنفسي: لا تفعلي فجهنم أشد حرًّا!!!!.

وصِرت كلما زارنا أحد بالمنزل، ارتديتُ سُترة بكُم طويل حتى ألتزم بقراري...ولما لاحظَت زميلاتي بالمدرسة أن تسريحتي أصبحت تقريبًا واحدة تساءَلن، فقلتُ لهن بكل شجاعة: (أنا أنوي أن أرتدي الحجاب)، فلم تصدِّق واحدة منهن!!! وقُلن لي: لابد أنك تمزحين، فهذا شيء لا يمكن أن نصدِّقه... ولكني لم أسترسل معهن في هذا الحديث بل كنت أحدِّثهن عن أهمية الحجاب، فكُنَّ يتعجَّبن، ولكن دون تعليق، ومع الوقت أصبح شَعري بالنسبة لي حين خروجي من المنزل شيءٌ أقوم بضمِّه من الوراء بشكل منسَّق... ولم تعد تلك التسريحات تشغلني، كما اعتَدت أن أرتدي الكُم الطويل حتى في الصَّيف، فقررتُ أن أطلب من والدتي أن تُحيك لي بلوزات طويلة تصل إلى تحت الرُّكبة لأرتديها مع البنطلونات المتوفرة لدي (كبداية) ولكنها اعترضت بشِدَّة وقالت لي: أخشى أن تخلعيه.. كما أنك حين تدخلين الجامعة لابد وأنك ستغيرين رأيك فأوضحتُ لها أن الأمر مُلِحٌ بالنسبة لي وأنني أفكِّر فيه منذ شهور... وأمام إصراري وإلحاحي لم تملك أمي إلا أن تستجيب لرغبتي، وفي أول يوم ارتديتُ فيه الحجاب كان أبي في غاية السعادة، وكان إخوتي مندهشين، أما العائلة والجيران

والأصدقاء، فعلى الرغم من اندهاشهم، إلا أنهم شجَّعوني كثيرًا، حتى أن بعضهم قال لي: لقد أصبحتِ أكثر جمالًا بالحجاب!!!.

وزاد ذلك بالطبع من سعادتي، ولكن سعادتي الحقيقية كانت بداخلي... فقد شعرتُ بالنور يغمرني، وشعرت كأنني لم أعد أعيش على الأرض كسابق عهدي..بل أحسستُ كأنني أعيش بجزء كبير منِّي في السماء، وجزء يسيرٌ على الأرض...والأهم من ذلك أنني شعرت براحة الضمير، وعدم الخِزي من ربي حين أقابله!!!! ولم أعد أخشى الموت...فلقد صحَّحتُ مساري، واخترتُ طريق العِزَّة، والفوز والنَّجاة...ألا وهو طريق ربّي!!!!!! وشعرت أن حجابي هو تاج عِفَّتي وحيائي لقد أصبحتُ مَلِكة!!!!! نعم أنا الآن مَلِكة بطاعتي لربي!!! وغدًا بفضل الله ورحمته سأصير مَلِكة في الجنة، في قصر سقفه عرش الرحمن!!!! وانتهت المشكلات المتكررة بيني وبين أبي وأخي الأكبر بسبب تعليقاتهما على ملابسي وتسريحاتي كلما خرجت من المنزل، وأصبح أبي راضيًا عني، فخورًا بي، وأصبحتُ وأخي الأكبر أصدقاء، أما أخي الأصغر فكان ما يزال مندهشًا!!! وأما أمي فكانت تشعر بالحرج لأنها لم ترتدي الحجاب بعد، فكانت تقول لتريح ضميرها: سأرتديه بعد أن أؤدي فريضة الحج!!! وكانت رحاب جزاها الله عني خيرًا كثيرًا هي أسعد الناس بحجابي، وأصبَحَت بعد ذلك هي أقرب الناس إليَّ، فلما حدَّثتُها عن شعوري بالجهل الديني فمعلوماتي في الدين لا تتجاوز ما درسناه بمادة التربية الدينية بالمدرسة اقترحَتْ عليَّ أن أذهب معها إلى الدروس الدينية عصر كل يوم خميس، فاستأذنتُ من أبي وأصبحتُ أرافقها إلى رياض الجنة!!! نعم، لا تتعجبي، فقد كنت أشعر بذلك وأنا أتلقى هذه الدروس...فرأيت أن أعرض على أمي أن تصحبنا، وكذلك طلبت من والدة رحاب (مع أنها ملتزمة بالحجاب)، ولكني أردتُ أن تحظَى أمي بصُحبة متدينة، فوافقَت أمها، وأصبحنا نذهب نحن الأربعة عصر كل

خميس إلى رياض الجنة.... فتأثَّرت أمي كثيرًا بهذه الدروس، وحرصَت في موسم الحج التالي على تأدية هذه الفريضة، فعادت من الأراضي المقدَّسة ترتدي الحجاب وهي في غاية السعادة والرِّضا!!!!! والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كُنَّا لِنَهتدي لولا أن هدانا الله(*).

❁❁❁

(*) موقع «صيد الفوائد» قصة كتبتها/ زهرة الياسمين.

يتيمة في حضن والديها!

يتيمة في حضن والديها، هذا هو الوصف الذي ينطبق على حالي فوالدي ووالدتي ما زالا على قيد الحياة ولكنني لا أشعر بهما ولا أرتوي من حنانهما وحبهما، أنا البنت الوحيدة بين سبعة أولاد لست أكبرهم ولا أصغرهم ولكن والدي مع الأسف لا يحب البنات!! فأنا مساوية لمصطلحات كثيرة في قاموسه مثل العار، والذل، والهم، وما زلت أسمع عبارات تتضخم حال مروري أو عبوري تدعو بعدم كثرة بنات جنسي عند الصديق، أو الدعاء علينا بالقبر.

يوم كنت طفلة صغيرة تشع البراءة من عينيها، وتتفجر العذوبة من شفتيها كان الجميع يتندرون بي حين أدخل في ثوبي الجميل أظل للحظة أنقل بصري بين والدي ووالدتي أيهما يفتح ذراعيه ليضمني كان والدي يومئ بيده نحو والدتي قائلا: (هي لك) فأسرع نحوها أرمي جسدي الطاهر في حضنها فتقبلني وهي تضحك كنت حينها في الرابعة من عمري وكان أخي (محمد) في الثانية فكان والدي يفضله علي ويجلسه في حجره ويقبله ويناغيه ويخرج له من جيبه دراهم ويعطيه، بل ربما بقي وقتًا طويلًا على تلك الحال فلا يضجر والدي ولا يمل، ولما كبرنا قليلًا صار والدي يستعديه علي ويحثه على ضربي أو شد شعري أو أخذ حقي مني ويفرح كثيرًا إن تفنن في طرق القمع هذه، بل لقد كافأه مرة حين بصق في وجهي!!

كبرت وكبر معي شعور القهر هذا، عار أنا بين هؤلاء الشرفاء، ذل ومهانة لوالدي، عيب في وجه إخوتي يحاولون مداراته، أنا لا شيء بالنسبة لهم ليس لي ذكر أو اعتبار، والدتي صامتة وأحيانًا مؤيدة، فالبنت مهما فعلت فهي بنت!! وكأن البنت تهمة فظيعة ملتصقة بي، صرت أحاول الفكاك منها والبراءة من فعلها!! أليس الله الذي خلقني وأرادني أن أكون بنتًا؟ أم أن الله خلقكم من نور وخلق البنات من رجس؟ تعالى الله عن ذلك.

إن والدي لا يحبني، بل لا يطيق رؤيتي حين أكون في المكان الذي هو فيه، لا يلتفت إلي ولا يرد على حديثي، وإذا دخل أحد إخوتي هش له وبش ووسع له في المكان وأجلسه بجانبه وبدأ يتجاذب معه أطراف الحديث ويسأله عن أخباره!!

ترى ما هي الجريمة التي ارتكبتها؟ وما الذنب الذي اقترفته يداي حتى أنبذ في عقر دارنا؟ لا أعلم بما يحدث في شؤون البيت فضلًا عن أن أستشار، طلباتي دائمًا مؤجلة ومنسية وطلباتهم أوامر تنفذ على وجه السرعة، أنا المخطئة دائمًا وأستحق ما يحصل لي، الشكوى محرمة علي، وفي الأماني منيتي حقي أن أصمت ثم أصمت حتى يتحجر لساني وتموت لغتي، علي دائمًا أن أقول (نعم، حاضر) حتى لأصغر إخوتي دون أن يرد لي الإحسان أو يُكبر الجميل فهذا الشيء رغمًا عني لا حبًا وكرامة.

علا صوت (حسين) مجلجلًا في أرجاء البيت ينادي أمي التي كانت في الخارج أسرعت في الإجابة (نعم، نعم) صرخ في وجهي بعنف (من ناداك يالـ....) ثم هوى بكفه على صفحة وجهي فأنا لم أسرع في إجابة ندائه إلا لأسمع الضيف القابع في المجلس!! هكذا بكل بساطة حلل موقفي!! لقد مللت هذه الحياة في ظل الذل والقهر والقمع لست إنسانة لي كرامتي!! ولست خادمًا لي إنسانيتي ولست بشرًا في حريتي!! فمن أكون وسط هذه الشوارب المفتولة والعضلات المشدودة؟!

أنا أي شيء إلا أن أكون آدمية كرمها الله سبحانه!! اللهم أهد والدي فهو سبب هذا الوضع المزري الذي أنا فيه حتى أعتق من هذا الرق الجاهلي فأشد ما أخاف أن أزف يومًا إلى شيء يقال له رجل دون أن يكون لي رأي، وهو في حقيقته ظل لذلك الجاهلي الذي يئد البنات ليتخلص من عارهن فهذا وأد وذاك وأد ولكن أحدهما مغلف ومخفي وهو ما أعيش فيه(*).

«ابنتكم»

(*) مجلة «الدعوة».

زوجي هو الضحية؟!

تزوجت منذ خمس سنوات، ومع ذلك لم يستوعب أهلي الحدث جيدًا، أعني أنهم لم يشعروا بعد بهذا، هم فرحوا بزواجي ولكنهم أيضًا مازالوا ينتظرون مني ما ينتظرونه من (نورة) قبل الزواج، فأنا كبرى أخواتي وإخواني، كنت لهم كل شيء، وكانت والدتي تعتمد علي في جميع الأمور وما زالت؛ دون أن يشعروا أن هذا يسبب لي حرجًا مع زوجي، ومع أهله أحيانًا.

أمي مازالت تطلب مني البقاء عند إخوتي الصغار إذا همت بالخروج للسوق أو حضور إحدى الحفلات المسائية الخاصة بها أو إن كان لها موعد أو لأحد إخوتي عند عيادة الأسنان، لا يمكنها الاعتماد على الخادمة ولا تثق في أختي (هند) وهي في الصف الأول الثانوي، لابد من حضوري مهما كان الثمن وإلا فإنها ستغضب مني وتعتبرني مقصرة في حقهم ومتناسية لحاجتهم. أحاول في مرات غير قليلة أن أبيّن لأمي ولإخوتي مدى الضيق الذي ينتاب زوجي من هذا الوضع ولكنهم ربما لا يستوعبون!! لا أدري حقيقة ما أقول ولكني أحاول جاهدة أن أوفق بين الاثنين على أن زوجي هو الضحية دائمًا!!.

في بداية الإجازة كانوا قد قرروا السفر فعزمت على الذهاب إليهم لتوديعهم ومعاونتهم إن لزم الأمر فوجدتهم لم يجهزوا حقائب السفر ولم يقوموا بتنظيف البيت ولا بتفريغ الثلاجة فاضطررت أمام إلحاح والدتي إلى الاعتذار من زوجي وبت تلك الليلة عندهم في كر وفر من غرفة لغرفة أجهز حقيبة هذه وأكوي ملابس هذا وأساعد أمي في طي المفارش ووضعها في الحقائب.

ثم دخلت المطبخ وقمت بمساعدة الخادمة بتنظيفه وتفريغ الثلاجة من محتوياتها التي ربما تتلف وحفظ ما يمكن أن يفسده المناخ، وهكذا مازال أهلي ينتظرون مني أن أفعل مثل ما كنت أفعل في السابق وكأن الوضع لم يتغير بتاتًا.

أتمنى أن تعوّد أمي أخواتي الصغيرات على القيام ببعض المهمات البسيطة التي كنت أقوم بها ليتدربن على المهمات الأصعب، أتمنى أن تشعر أن إخوتي قد كبروا بما فيه الكفاية للبقاء وحدهم في البيت لساعة أو لبضع الساعة، أرجو أن يدركوا أن الوقت أحيانًا يمضي دون أن ينتبهوا لذلك لعلهم يبادرون إلى أعمالهم التي يتحتم عليهم القيام بها فينجزونها قبل فوات الوقت أو ضيقه، هل لابد أن أذهب إليهم قبل الحفلة بيوم أو يومين لأجهز معهم أو بالأصح لهم أغراض الحفلة ولزوم المائدة وحلويات الشاي والقهوة؟ ثم يوم الحفلة أداوم منذ ساعات الصباح الباكر، وكذا بعد الحفلة أعود إليهم لأقوم بإعادة الأواني والصواني والأكواب إلى أماكنها؟!! أيعقل أنهم لا يستطيعون عمل ذلك مع الخادمة؟ أم أن المسألة فقط هي اعتياد وإدمان؟! أنا لم أعد خفيفة الحمل، خروجي من بيتي يكلفني الكثير، طفلان يحتاجان إلى تغيير ملابس وتجهيز حقيبة، وزوج يحتاج إلى من يؤمن له غذاءه وعشاءه وشايه، و(أم زوجي) تفتقد زوجة ابنها غالبًا في معظم الاجتماعات لأنها مرتبطة بشكل دائم بأهلها دونما سبب واضح أو حاجة ملحة.

أرجو ألا يفهم مني العقوق أو التقصير في حق الوالدين، ولكن هذا الوضع أجبرني على التقصير في حق زوجي، وهو كان الأولى فأعينوني على القيام بحقه وفقكم الله لذلك(*).

«ابنتكم»

(*) مجلة «الدعوة».

مرضت.. ففرطت.. فضيّعت!!

أخي (جابر) في الخامسة والأربعين من عمره، ذات يوم أحس بتعب في جسمه، ذهب إلى المستشفى، قام بعمل الفحوصات اللازمة فاتضح أنه مصاب بمرض (السكري)..

أعطاه الطبيب بعض التعليمات وقدم له النصيحة بأن (يريح نفسه) حتى يسلم من مضاعفات المرض. وفعلًا فقد أراح أخي نفسه وفكره وعقله، بل أخلى مسئوليته من أبنائه فتغيرت نظرته للأمور من حوله وبات يعيد حساباته وظن أن هذا المرض لم يصبه إلا بسبب إجهاده نفسه في توجيه أبنائه وملاحظة زوجته وحرصه على ما ينفعهم. قال لي: «وماذا استفدت من كثرة التوجيه والتأديب ضغطت أعصابي وأتعبت أبنائي وها أنا أجني ثمرة هذا الشد»، وقال: «في الحقيقة كلما رأيت أبنائي وشعرت أنني في يوم من الأيام قد أفارقهم ضاق صدري وتمنيت أن لو أملك لحققت رغباتهم كلها»!!!.

مع الأسف تغير أخي كثيرًا ولم ينظر إلى مرضه نظرة صحيحة وبالغ هداه الله في تضخيمه وتعظيم أمره، وكان كل ذلك يصب في مصلحة زوجه وأبنائه الذين وجدوا شخصًا مختلفًا بعد المرض، ضعيفًا منكسرًا ورحيمًا! لا يرد لهم طلبًا ويبالغ في دلالهم ورحمتهم ويرمي كل حمله ومسئوليته عليهم مع شدة ضعفهم وحاجتهم إلى من يرعاهم ويوجههم.

لقد سمح لابنه (زاهر) بقيادة السيارة، بل أعطاه مفاتيحها وكان في السابق يرى ذلك إهمالًا، وزاهر في الصف الثالث المتوسط يخرج بالسيارة متى أراد يقضي بعض حاجات أهله أو يأخذهم للسوق أو لزيارة أقاربهم ويستخدم السيارة حين يود المرور على صديق للمذاكرة أو حتى التفرج على المباراة، بل إنه صار من رواد محلات الوجبات السريعة بشكل يومي بمفرده أو مع أصدقائه، وأين شدة كره أخي لهذه المحلات؟ كان يسميها محلات الوجبات المسمومة؟!.

والأمرّ من ذلك أنه اشترى له جوالًا وأصبح يغدق عليه المال كلما أراد فلا تراه إلا وجيبه عامر والأصدقاء حوله من كل ناحية لا تعلم هل هم رفقاء خير أو سوء؟!. لقد ضاع (ابن أخي) بين السيارة والجوال واللعب في الشارع بالكرة مع فريق الحارة؟ وأيضًا يقول (جابر) إنه يفكر بشراء سيارة له إن نجح في المرحلة المتوسطة!! أسأل الله أن يحفظه ويحميه.

والبنات كان لهن نصيب من هذا التغيير الشامل فلقد رأى أخي أنه كان يدقق عليهن وعلى أمهن في أمور كثيرة ويحرمهن من أشياء عديدة فأعطاهن الضوء الأخضر الذي لا ينطفئ أبدًا، فتساهلن رويدًا رويدًا في حجابهن واتسعت فتحتا النقاب وصار النزول إلى الأسواق من أبجدياتهن اليومية، كل يوم في سوق يبحثن عن الجديد أو لا يبحثن عن شيء أبدًا، بل يقلبن البضائع ويقلبن أعينهن في الباعة ومرتادي السوق ثم يعدن للبيت شاكرات لوالدهن هذا الصنيع فتنفرج أساريره ويشعر أنه قدم لهن شيئًا وعوضهن بعض ما فات. وخطوط هواتفهم دائمًا مشغولة، فزاهر جالس أمام الإنترنت يقضي الساعات في غرفته الخاصة يقتحم عالمًا مجهولًا ومريبًا، والبنات يتحدثن مع صديقاتهن أيضًا ساعات طويلة، لقد صرنا نسمع منهن أشياء لم نألفها ونعلم يقينًا أنها كانت من المحظورات، فهذه (كاميليا) تحدث بناتي عن حفلة صاخبة حضرتها في بيت صديقتها، حيث دعت بعض الصديقات وارتدين الملابس الغريبة ورقصن على أنغام الموسيقى!!! سألتها ابنتي: «وهل خالي جابر موافق ويعلم بذلك؟»، قالت بدلال: «نعم، بل عندما حدثته بها قال: المهم أنك انبسطت».

نعم هذا ما راح أخي يسمح به ويتغاضى عنه، فهمُّه أن يبقى في البيت هادئًا مرتاح البال وأن يسير على الحمية التي وصفها له الطبيب والتي راحت زوجة أخي تعلمها الخادمة حتى أتقنتها جيدًا. فليس هناك متسع من الوقت لمثل هذه الأمور فالوقت للزيارات والنزهات والمكالمات وخلافه.

كان الخروج أيام الدراسة ممنوعًا، فيجب الاهتمام بواجبات الصغار ومتابعة دروسهم. الآن الوضع تغير لذا اكتظ الجدول وفي السابق كانت فكرة حضور مناسبات في استراحات خاصة بالنساء فكرة مرفوضة حتى مجرد طرحها، أما الآن فإن مناسبات صديقاتها لا تكاد تفوتها واحدة، والمرأة حين يفتح لها هذا الباب فمن الصعب إغلاقه.

أنا لا ألوم أحدًا بقدر لومي لك يا أخي فليس معنى أنك مريض (بالسكري) أي أنك ستموت وغيرك سيعيش طويلا؟ وليس معناه أنك صرت ضعيفًا ومهزومًا؟ ولن تحتمل أي مسئولية ولا يعني أبدًا أن تحمل رأسك وتضعه على الطاولة لترتاح، بل يمكنك أن توجه أبناءك كما كنت في السابق وتنصحهم وتحجزهم عما يضرهم دون أن يكون ذلك سببًا في مرضك أو تضاعفه.

فأنت مسئول أمام الله ولن يعفيك هذا عن مسئوليتك وسعادة الأبناء وإسعادهم لا تكون بهذا الشكل أبدًا فأنت تسيء إليهم دون أن تشعر وتقصر في حقهم من حيث أردت عكس ذلك فافهم قصدي وأعد النظر في أمرك(*).

«أخنك»

❁❁❁

(*) مجلة «الدعوة».

زوجة في مقعد المتفرجين!!

متى تشعر بعض الزوجات بعظيم حق أزواجهن عليهن؟ هل يعقل أن تكون إحداهن بعيدة عن زوجها وهو في مسيس الحاجة إليها وهما مازالا في ريعان شبابهما؟ ترى ماذا ستفعل له إذا كبر وشاخ وصارت حاجته إلى من يسنده لا تنقطع؟!

لقد تعرض أخي لحادث مروري نجا منه بفضل الله ولكن أصابته كسور ورضوض في أنحاء متفرقة من جسده لزم الفراش مدة طويلة قضى بعضها في المستشفى ثم خرج واستمر في العلاج الطبيعي حتى عافاه الله تمامًا وعاد سليمًا كما كان، كانت مدة مرضه محك ابتلاء لزوجته التي لم تطق الوضع طويلًا فعادت في أسرع وقت إلى حياتها الطبيعية، كيف كان ذلك؟!.

بعد أن علمنا بالحادث، صدمنا وذهلنا وأسرعنا للمستشفى نطمئن على صحته، مكث عدة أيام في غرفة العناية المركزة، ثم خرج منها وبقي في المستشفى، في ذلك الوقت الذي كان فيه في العناية المركزة كان الضيق والحزن باديين على زوجة أخي، لم تكن لتهنأ بلقمة ولا تلتذ بنوم حتى انفرجت الغمة وزال الخطر بحمد الله.

لم يكن إلا أسبوع آخر حتى صار ما حدث كأنه لم يكن، فعلى الرغم من أن أخي مازال في المستشفى وما زالت بعض أعضائه في الجبيرة إلا أنها لم تبد اهتماما. فعادت إلى سالف عهدها نزهات وتمشيات وترفيه!!.

تبقى في بيتها طول الأسبوع من أجل الدراسة، ثم تذهب إلى أهلها في الأجازة يومي الخميس والجمعة فتذهب بأبنائها إلى المنتزه الترفيهي، ثم تخرج منه إلى أحد المطاعم العائلية، حيث ضربت موعدًا مع صديقتها وهكذا هي في يومي الإجازة، إما

في سوق تبحث عن الجديد أو في منتزه ترفه عن نفسها وعن الصغار أو عند صديقة أو تحضر حفلًا نعم، لم يكن أخي قد خرج من المستشفى بعد وهي تحضر حفل زواج أخت صديقتها!! نتعجب حقًا من جمود أحاسيسها ماذا يعني لها زوجها؟! لماذا لا تأبه لحاله؟ إنه ممدد على السرير، ساقاه في الجبس وعلى يديه وصدره عصائب ونفسه متعبة وحالته غير مستقرة، وهي سادرة في لهوها وسعة صدرها!!.

في أحد الأيام دعتهم إحدى الجارات إلى اجتماع الجيران الدوري. فاعتذرت أمي بشدة، لأنها لا ترى أن الوقت مناسب لمثل هذا فمروان في المستشفى وأنا قلقة عليه وبما أن أخي وأهلي في حارة واحدة فقد علمت أمي من الجيران أن علياء حضرت الدورية فما المانع من الحضور ومروان في المستشفى؟! يعني ماذا سنفعل له إن بقينا في البيت؟! ياه.. ما أشد قسوة قلبها!! حين تذهب لأهلها آخر الأسبوع فإنها لا تأتي لزيارته إلا مرة واحدة أو اثنتين تقف عشر دقائق ثم تخرج، تدخل خالية اليدين، صفر المشاعر، تعتذر بأنها لا تجد من يأتي معها، مع أنها لا تترك السوق أو المنتزه بهذه الحجة!!

أعلم جيدًا أنها لو أرادت لفعلت ولكنها من نوع من النساء لا تحب أي شيء يكدر عليها عيشتها أو يقطع لذة متعتها، ظنت أن الأمر لن يطول، فلما طال لم تستطع أن تحبس نفسها في هذا الهم، خاصة أن أخي كان طيبًا معها، بل يدللها ويستجيب لطلبها حتى إنه كان يؤثر حاجتها على حاجته ويترك لها الخيار في كثير من الأمور.

خرج أخي (مروان) من المستشفى بعد أن قطع شوطًا كبيرًا في العلاج الطبيعي وكان المتوقع منها أن تطوي عباءتها وتكسر رجلها قليلًا وتبقى في البيت ترعاه وتقوم على خدمته وتعوض ما فاته من حبها وحنانها. ولكن أبو طبع ما يغير طبعه... يومان ربما أو ثلاثة وعادت حليمة...

اتصلت به والدتي ذات صباح تسأل عن حاله، فإذا زوجته تغط في نوم عميق وهو لم يفطر بعد فأسرعنا في تجهيز إفطاره وعملت له الحليب وجاءته في البيت، ففتحت لها الخادمة، لم تشأ والدتي أن تعاتبه على هذه الطيبة الزائدة فالوقت ليس وقت خصام ونزاع ثم هي تعرف ولدها جيدًا سرعان ما يندم، أفطرا جميعًا ثم ساعدته والدتي في تغيير ملابسه وخرجت به إلى الفناء ليرى الشمس ويستمتع بالهواء العليل.

استمرت والدتي زمنًا تحضر فطوره وغداءه وعشاءه وحرمه المصون تسأل بكل صفاقة: ماذا ستصنعين له على الغداء؟ وما هو فطوره غدًا؟! وهي تبقى معه قليلًا ثم تخرج بحجة أنها تكره رائحة (الحلبة) التي تصنعها أمي له وفقًا لنصائح المجربين. على الرغم من أن الغرفة تبخر وتطيب كل يوم ويتجدد فيها الهواء، وملابسه يتم تغييرها مرتين. ونحن نأتي لزيارته ووالله ما شعرنا بها، ثم إنها زوجته ويجب أن تحتمل منه أكثر من هذا.

أخي طيب بلا حدود، وهي تعلم هذا جيدًا، لذا فهي تعلم أن طيبته وضعف شخصيته ستشفعان لها فهو أبدًا لن يؤذيها بطلاق أو زواج مع أنه عتب عليها ولكن سرعان ما يرضى ويصفح، وهي كل يوم تستأذن لزيارة ضرورية أو مرافقة أمها في السوق لحاجة ملحة، وفي يوم الخميس من كل أسبوع لم تفرط مرة واحدة في اجتماع أخواتها، وهي في هذا كله تحتج بأنها لن تفعل له مثل أمه مهما حاولت؛ لذا صار وجودها ثانويًا وتحملت أمي العبء برضا حتى شفي أخي تماما.

كم أرثي لحال أخي لما ابتلاه الله به من هذه الزوجة، وأرثي لحالها لما فرطت في أكبر حق عليها من أجل متاع زائل، وَيْلها إن لم يتداركها الله برحمته(*).

«أخت زوجك»

(*) مجلة «الدعوة».

ضعيفة في سجن الجفاء؟!

عشت أيامًا حلوة حين كان والدي على قيد الحياة. وبعد موتها تسربت البهجة من بين يدي، واغتال الألم كل بوادر فرحة تهم باحتوائي.

خرجت من بيت إخواني عروسًا في ثوب فرح يضارع الورد في جمال لونه وعبير رائحته، وعدت إليه كسيرة في أسمال الطلاق البالية، فكان المؤمل أن أجد يدًا حانية تمسح آثار الحزن، وقلبًا كبيرًا يحتوي الألم، ولكن هيهات ما أتمنى!!.

لقد عدت إلى البيت الذي فيه درجت ومنه خرجت عبئًا ثقيلا، وهمًا مقلقًا، عشت كالخادم، تعلمت أن ألبي الطلبات دون سؤال، أجهز الطعام وأعتني بالأولاد، فهذا ثمن بقائي معهم، إنهم لا يبدون اهتمامًا بي ولا يسألون عن حاجتي، وهل لمطلقة يتيمة الأبوين يكفلها إخوانها حاجة في الدنيا؟! اللهم ارحم ضعفي.

مرت امتحانات هذا العام بسلام، وها هي النتائج يحصدونها امتيازات وتفوقًا، وتعم الفرحة قلوبنا جميعًا، ويختار أبناء أخي هدايا النجاح ويشترون كعكة كبيرة ثم يذهبون عند أخوالهم ويحتفلون بنجاحهم، وأنا لا يذكرني أحد، فما قمت به من تدريس ومراجعة وسهر في ليالي الامتحان واجب علي كما يظنون ألست أسكن معهم وأحتاجهم؟ إذن علي أن أقدم قرابين الطاعة والخضوع حتى أكسب صمتهم.

أعيش مع عبد العزيز في بيت والدي - يرحمه الله - ولقد تنازل إخواني عن حقهم في البيت مادمت باقية فيه، ولكن أخي ينسى نفسه ويتصرف كما لو كان المالك الوحيد للبيت وأنا ضيفة ثقيلة جدًا فصارت المنّة له!!

ورثت بعض المال عن والدي وجعلته في مشروع صغير، إلا أنه لأسباب كثيرة خسر، وبقيت هكذا تحت وصاية إخواني ينفقون علي، إلى أن اتفقوا على التنازل لي عن راتب والدي التقاعدي، وهو مبلغ قليل إلا أن الله بارك فيه لأنه مال من كسب طيب، فصار تنازلهم بداية لنفض أيديهم مني، ومنّ بالمعروف في، فأنا التي أسدد فواتير الهاتف الآن لأنني أكثرهم استعمالًا له، وأسدد فواتير الكهرباء والماء لأن البيت بيت والدي وبقاء أخي فيه مرهون بوجودي فيه، إذ لو لم أكن معه لما بقي في هذا البيت القديم دقيقة واحدة!! ولأنه صار لي دخل خاص فعلي أن أتقاسم مصروف البيت مع أخي مناصفة لشراء اللحم والخضر والفاكهة وغيرها!!.

إذن ما الذي يبقى لي من هذا التقاعد؟؟ لا يهم فأنا في نظرهم لا أحتاج شيئًا، ألست آكل وأشرب؟ فليس لي صديقات أدعوهن، ولا أخرج كثيرًا للزيارات، إلا إذا كانت زوجة أخي ترغب في الذهاب فأنا تبع لها!!. وهم يحسدونني لأنني لست مطالبة بالتزامات اجتماعية كالهدايا وغيرها مثل زوجاتهم!! لقد نسوا أنهم سلموني راتب والدي بيد ثم بدؤوا يسحبونه ريالًا ريالًا باليد الأخرى!! والناس يشكرون إخواني على حسن صنيعهم وهم لا يعلمون شيئًا.

في الإجازة أشعر بوخز الألم يزداد، وأحن كثيرًا إلى تلك الأيام الجميلة التي عشتها في ظل والدي ولكني أعلم أنها لن تعود إلا في جنات النعيم – برحمة الله وفضله –إذا صبرت على هذا الابتلاء وأحسنت إلى إخواني دون انتظار المقابل، في الإجازة أنتقل من بيت إلى بيت، ما أن يستقر بي المقام في بيت أحدهم حتى يكونوا قد عزموا على السفر فأذهب إلى الآخر وهكذا حقيبتي معدة للترحال حتى تنتهي الإجازة ولكني لا أسافر معهم، لأني أقيد حريتهم وأضايقهم أيضًا.

أشعر أن إخواني يذلونني بحاجتي إليهم، أتساءل: أين مكانتي في قلوب إخواني؟ وماذا أعني لهم؟ هل سيفتقدونني إن مت مثلًا؟ وهل هم يفرحون لو تزوجت لفرحي أو يفرحون لفراقي؟ أليس لي مكان صغير في قلوبهم؟!!.

لا أتذكر أن أحدًا منهم قدم لي هدية في أي مناسبة مع أنهم لا ينسون زوجاتهم أو أبناءهم في العيد أو يشكرني على عمل قمت به، أو يبين لي مكانتي عنده، أو حتى سألني عما في نفسي من رؤى وأماني!!.

من أنا؟ وماذا أعني لهم؟ أنا كومبارس صغير أؤدي دورًا هامشيًا في فيلم ضخم وقبض ثمنه ورحل أو توارى عن الأنظار ينتظر دورًا آخر لا يقل مستوى عن سابقة، إنني واحدة من هذه الجموع الغفيرة التي تعمل ولكن لا أحد يلتفت إلى عملها، لا أحد يعيرها اهتمامًا، هذا ما قدره الله علي، فالحمد لله على كل حال(*).

«أختكم»

❀❀❀

(*) مجلة «الدعوة».

ما أجمل أن نسعد الآخرين

في إحدى المستشفيات كان هناك مريضان هرمين (عجوزان) في غرفة واحدة، كلاهما معه مرض عضال أحدهما كان مسموحًا له بالجلوس في سريره لمدة ساعة يوميًا بعد العصر ولحسن حظه فقد كان سريره بجانب النافذة الوحيدة في الغرفة، أما الآخر فكان عليه أن يبقى مستلقيًا على ظهره طوال الوقت، كان المريضان يقضيان وقتهما في الكلام، دون أن يرى أحدهما الآخر، لأن كلًا منهما كان مستلقيًا على ظهره ناظرًا إلى السقف.

تحدثا عن أهليهما، وعن بيتيهما، وعن حياتهما، وعن كل شيء وفي كل يوم بعد العصر، كان الأول يجلس في سريره حسب أوامر الطبيب، وينظر في النافذة، ويصف لصاحبه العالم الخارجي وكان الآخر ينتظر هذه الساعة كما ينتظرها الأول، لأنها تجعل حياته مفعمة بالحيوية وهو يستمع لوصف صاحبه للحياة في الخارج، ففي الحديقة كان هناك بحيرة كبيرة يسبح فيها البط، والأولاد صنعوا زوارق من مواد مختلفة وأخذوا يلعبون فيها داخل الماء، وهناك رجل يؤجِّر المراكب الصغيرة للناس يبحرون بها في البحيرة، والجميع يتمشى حول حافة البحيرة وهناك آخرون جلسوا في ظلال الأشجار أو بجانب الزهور ذات الألوان الجذابة، ومنظر السماء كان بديعًا يسر الناظرين.. وفيما يقوم الأول بعملية الوصف هذه ينصت الآخر في ذهول لهذا الوصف الدقيق الرائع ثم يغمض عينيه ويبدأ في تصور ذلك المنظر البديع للحياة خارج المستشفى.

وفي أحد الأيام وصف له عرضًا عسكريًا ورغم أنه لم يسمع عزف الفرقة الموسيقية إلا أنه كان يراها بعيني عقله من خلال وصف صاحبه لها، ومرت الأيام والأسابيع وكل منهما سعيد بصاحبه وفي أحد الأيام جاءت الممرضة صباحًا لخدمتهما كعادتها، فوجدت المريض الذي بجانب النافذة قد قضى نحبه خلال

الليل، ولم يعلم الآخر بوفاته إلا من خلال حديث الممرضة عبر الهاتف وهي تطلب المساعدة لإخراجه من الغرفة فحزن على صاحبه أشد الحزن وعندما وجد الفرصة مناسبة طلب من الممرضة أن تنقل سريره إلى جانب النافذة ولما لم يكن هناك مانع فقد أجابت طلبه.

ولما حانت ساعة بعد العصر وتذكر الحديث الشيق الذي كان يتحفه به صاحبه انتحب لفقده ولكنه قرر أن يحاول الجلوس ليعوض ما فاته في هذه الساعة وتحامل على نفسه وهو يتألم، ورفع رأسه رويدًا رويدًا مستعينًا بذراعيه، ثم اتكأ على أحد مرفقيه وأدار وجهه ببطء شديد تجاه النافذة لينظر العالم الخارجي وهنا كانت المفاجأة!! لم ير أمامه إلا جدارًا أصم من جدران المستشفى، فقد كانت النافذة على ساحة داخلية نادى الممرضة وسألها إن كانت هذه هي النافذة التي كان صاحبه ينظر من خلالها، فأجابت إنها هي!! فالغرفة ليس فيها سوى نافذة واحدة ثم سألته عن سبب تعجبه، فقص عليها ما كان يرى صاحبه عبر النافذة وما كان يصفه له.. كان تعجب الممرضة أكبر، إذ قالت له: ولكن المتوفى كان أعمى، ولم يكن يرى حتى هذا الجدار الأصم، ولعله أراد أن يجعل حياتك سعيدة حتى لا تُصاب باليأس فتتمنى الموت(*).

❀❀❀

(*) مجلة «شباب» العدد (٩٨).

غافلة والموت عند رأسها؟!

متى يصحو النائم إن لم يوقظه صوت أجراس الموت تقرع فوق رأسه؟! ومتى ينتبه الغافل إن لم تنبهه حوادث السنين تتتابع عليه؟!.

ما بال هذه المسكينة تسدر في غيها وتغوص في لهوها لا توقظها لحظة عجز احتاجت فيها إلى من تشكو إليه ضعفها أو تمد إليه يدها فلم يكن سوى الله سبحانه تعلق به أسباب الرجاء ويمدها بأسباب البقاء.. وهي مع ذلك بعيدة عنه!.

ابنة خالتي هذه في ريعان شبابها طرحتها الهموم وقهرها المرض وهي مع ذلك متعلقة بالحياة بكل ما تملك من قوة، غرها طول الأمل فما زالت تخطط وتبني وكأنها تعيش أبدًا، الموت قاب قوسين أو أدنى منها بأمر الله وهي تعب من مباهج الحياة وشهواتها دون أن تقف هنيهة لتراجع حساباتها وتسترجع ماضيها وتفكر في حاضرها!!. ماذا عملت؟ وماذا قدمت بين يدي الموت؟ وماذا أعدت للقاء الله؟.

تُرى هل جعلها المرض تعيد ترتيب أولوياتها وتبرمج اهتماماتها؟ تنظر إلى صلاتها مثلًا وتحاول تحسينها كما تهتم بتحسين هندامها وتزويقه؟ هل أقبلت على القرآن تتلوه بتدبر وخشوع بعد أن كانت تقبل على المجلات والكتب الرخيصة تطالعها بنهم وتقرؤها بشغف؟

إن مرضها مع شدة وطأته لم يكن قادرًا على إيقاظها من سباتها قالت لي: يجب أن أقهر المرض، وأن أشعر بلذة الحياة، حتى لا ينال من صمودي وقوتي، أريد أن أتمتع بالحياة حتى آخر لحظة لي فيها كلام جميل، لكنه مجرد من نظرة شرعية تحيل هذا المرض إلى حقيقته والتي هي ابتلاء من الله وتمحيص للعبد ليعلم الله وهو العليم الصابر من عباده والشاكر الذي يثق بعاجل فرجه فلا تزيده الآلام إلا تعلقًا بالله وصدق لجوء إليه

وتضرعًا وانكسارًا بين يديه فيبتهل إليه ابتهال الذليل يسأله العفو والعافية في الدنيا والآخرة، فالله يمتحن العباد ليرى مدى صدقهم وثباتهم.

إن لتربية ابنة خالتي ودراستها في الخارج وكذا مجموعة الصديقات اللاتي يحطنها دورًا كبيرًا في موقفها ذلك.

في إحدى زياراتي لها في المستشفى حملت عددًا من الكتب والأشرطة النافعة لعلها في لحظة ضجر تسمعها أو تقلب صفحاتها ومكثت عندها غير قليل مذكرة لها أن المؤمن أمره كله خير، فلما هممت بالانصراف إذا بصديقاتها يحضرن لزيارتها أشكالهن تنبئ عن أفكارهن والعلم عند الله تحمل إحداهن في يدها مجموعة من المجلات العقيمة وإحدى الروايات العفنة، سلمت بحرارة وهي تقول: بحثت في المكتبات حتى وجدت الرواية التي طلبت، اقرئيها فهي ستنسيك الألم ما علمت هداها الله أنها تزيد الألم والإثم أيضًا.

كم أرثي لحال ابنة خالتي وأنا أراها على فراش المرض وإن شئت قل فراش الموت وهي تقلب بعينين ذابلتين صفحات مجلة أزياء يقولون لها: إنها توسع صدرها وهي في الحقيقة تزيدها ضيقًا وضنكًا!!.

يا حسرتى على تلك الكتب والأشرطة التي أمددتها بها ما زالت في الكيس مقصاة في أسفل الغرفة إنها كما ترى تجلب لها الهم والضيق لأنها تذكرها بالموت!! نعم الموت هذا هو الشيء الذي تحاول الهروب منه ونسيانه، إنها لا تريد أن تتصور حدوثه، إنه يسبب لها الرعب ويضاعف من معاناتها ويذكرها بزوال هذه اللذة الفانية في ساعة قصيرة!!.

عزيزتي: إن الموت حق فكم من صحيح مات من غير علة وكم من مريض عاش دهرًا طويلًا، إن تذكر الموت في كل حين يهون الحياة ويدفعنا إلى احتقارها وكشف خبيئها، فتصبح كأنما هي لقاء مضغناها ثم لفظناها لما شعرنا بمرارتها دون أن نكترث لها، بل وجدنا الراحة في التخلص منها. حين تذكرين الموت الآن فإنك ولا شك

ستجدين حماسًا للعمل الصالح والإكثار من الذكر الطيب مما سيكون له أعظم الأثر في امتلاء نفسك راحة وطمأنينة وثقة بالله فما الذي يدريك أن الله اختار لك هذا المرض لتزدادي قربًا منه وأنسًا به فيزداد منك قربًا ويغفر لك ذنوبك ويطهرك؟ فتلقينه كيوم ولدتك أمك!.

أيتها الحبيبة: كلنا محتاج إلى العمل الصالح، فالأجل علمه عند الله وأنا أحوج إلى هذا الكلام منك ولكنني أذكرك به فالذكرى تنفع المؤمنين. لقد آلمني ذات يوم دخول الأطباء عليك وأنت ممددة على السرير سافرة عن وجهك وذراعيك وحاسرة عن رأسك!! لماذا؟! ألا إنهم أطباء؟ إنهم لم يكونوا في حاجة إلى هذا، كانوا فقط يطلعون على التقرير ويسألونك بعض الأسئلة.

هذا الشريط الذي تدسينه تحت وسادتك تقولين: إنه موسيقى هادئة تبث في نفسك الراحة وتستدعي النوم حين يصيبك الأرق!! لقد خُدعت بمعسول كلامهم وتأثرت بسمومهم التي يبثونها في ثنايا كتاباتهم التي عكفت على قراءتها ليلًا ونهارًا.

حبيبتي.. بإمكانك أن تجعلي هذه الأيام مليئة بالتفاؤل والعادة، فقراءتك لهذه الكتب وسماعك لهذه الأشرطة النافعة لا ينافي أبدًا حبك للحياة وتمتعك بها، بل إنها تزيدك معرفة بالله وقربًا منه وحبًا للقائه فينعكس هذا كله في ثنايا روحك فتشعرين بالسعادة لأنك ستدركين أن هذا المرض فيه تكفير للذنوب وتطهير للنفس من أدرانها إن قابلناه بالصبر والشكر فتتفاءلين لأنه إن كتب الله لك الحياة فستكونين قد عرفت حقيقتها وحقارتها، وإن كانت الأخرى فهنيئًا لك نجاحك في هذا الابتلاء وصبرك عليه، رفع الله درجتك في عليين وأنزلك منازل الشهداء(*).

«ابنة خالتك»

(*) مجلة «الدعوة».

اصنع المعروف في غير أهله!!

كنت طيبة القلب حسنة الظن بالآخرين، وخاصة أخوات زوجي اللاتي أجد استغلال هذه الصفة والانتفاع بها في مصلحتهن سنوات ليست قليلة حتى أبدت الأيام حقيقتهن وكشفت عن سوء مقصدهن. كنت أظن أني محظية عندهن ومحط ثقتهن والرفيقة المفضلة لهن دائمًا، وذلك أنهن لا يذهبن ولا يخرجن إلا وقدمي تسبق أقدامهن، تتصل بي (خديجة) لتسألني عن مناسبة هذا اليوم لزيارة ابنة خالها مثلًا، فإن أبديت الموافقة وإلا بادرت بتأجيل الموعد حسب الوقت الذي أحدده والذي يناسبني، ثم قامت مشكورة بالاتصال بأخواتها لإشعارهن بالموعد الجديد وتؤكد عليهن عدم الارتباط بمواعيد أخرى فهذه الفرصة قد لا تتكرر.

إذا اجتمعن يوم الخميس وكنت موجودة لم أذهب إلى أهلي أو إلى أي مكان أبدين فرحهن بذلك، وبأن يعددن مزايا اجتماعنا سويًا ثم اقترحن الاستفادة من هذا الاجتماع بالذهاب إلى الحديقة أو مدينة الألعاب، وطبعًا علي أن أتكفل بإقناع زوجي ليأخذنا جميعًا في السيارة الكبيرة فهو صعب نوعًا ما ولكني أعرف كيف السبيل إلى انتزاع موافقته.

إنهن يحدثنني عن المعرض الجديد الذي تم افتتاحه في هذا الأسبوع، وعن بضائعه الراقية وتميزها عن غيرها، أو عن التخفيضات الكبيرة في محل آخر أو عن أحد المهرجانات والعروض المغرية التي يقدمها أحد الأسواق، بطريقة تثير الفضول وتسيل اللعاب، ويوعزن لي أن أطلب من زوجي أن يأخذنا جميعًا إلى واحدة منها مادمنا سنجتمع في آخر الأسبوع، فأقوم بالمهمة على أكمل وجه!!.

كم من مرة اعتذرت عن حضور مناسبة لأي ظرف فيبادرن إلى تذليل الصعوبات أمامي مثلًا يحضرن لي بطاقة إن كان هذا هو المانع، أو يأخذن أطفالي عند أبنائهن

ليطمئن قلبي عليهم، أو يقدمن خدماتهن المختلفة، المهم ألا أتخلف عن الحضور حتى إنني حضرت أحد الأفراح وأنا منتقبة نزولًا عند رغبتهن.

كنت أغبط نفسي على هذا الاهتمام الذي ألقاه منهن، وأعزو هذه العلاقة إلى طيب نفوسهن وصفاء معدنهن، فأقابل حسن معاملتهن بالمثل، وأوثرهن بالنزهات العائلية، بل إنني أحيانًا أجدول بعض المشاوير لتناسبهن، وكنا نمر عليهن في بيوتهن لنأخذهن معنا.

كان هذا الشيء يسعدني فترابطنا وتآلفنا مكسب لنا جميعًا.

كنت أظن أن هذا كله لمكانتي عندهن ولكن الحقيقة كانت مرة، فكل هذا الاحتفاء لم يكن لولا المصلحة التي كانوا يجنونها من ورائي، لقد استغنين عني وعن مرافقتي، كبر ابن خديجة واشترى له والده سيارة، فلم يعد لمشاركتي لهن في الزيارات والنزهات أي معنى، فلسن في حاجة إلى سيارة أخيهن!! فلماذا يشقين أنفسهن بي؟!!.

الآن صرن يذهبن إلى حيث يردن دون أن يخبرنني أو حتى يهمهن أمري، علمت أو لم أعلم، اعتاد الأقارب أن يرونا دائمًا مع بعضنا في تأدية الواجبات الاجتماعية، نزور قريبة أو نهنئ والدة بولدها، واليوم أجد نفسي محرجة في الرد على استفسارات الآخرين أنك لم تحضري مع البنات؟ ماذا أقول؟ وبماذا أجيب؟!.

لقد تطور بهن الأمر إلى قيام دورية نصف شهرية بينهن حيث يقوم علي ابن خديجة بالمرور على خالاته والذهاب بهن إلى صاحبة الدورية، ولم يعدن يحدثنني عن الأسواق والتخفيضات، ولا يحرصن على حضوري الأفراح والمناسبات، إن حضرت فبها ونعمت، وإن لم أحضر لم يسألن عني.

إنني أتساءل: تُرى ماذا يقلن للناس الذين يسألون عني؟؟.

لقد صرنا لا نرى بعضنا إلى لمامًا وفي المناسبات، وبينما كن في السابق يأتين لزيارة أمهن كل أسبوع أصبح علي يأتي لأخذها كل أسبوع لتحضر اجتماعهن!!

لماذا كل هذا الجفاء؟ هل كنتن تعتقدن أن هذا الشيء يرضيني؟ أنا التي لا أتذكر أني في يوم من الأيام قد أسأت إلى واحدة منكن، كم من المرات حضرت معكن اجتماعاتكن العائلية مع بنات خالكن إرضاء لكنَّ، مع ما أجد من الحرج فيها فأنا الغريبة بينكن، فكنتن تلطفن المجلس بإشراكي بالحديث، وجعلي محط اهتمامكن، هل كنتن تفعلن ذلك رغمًا عنكن؟ مجاملة أو مداراة مثلًا، لأن الحاجة إلى أخيكن تدفعكن لذلك؟ أيعقل أن هناك أناسًا يستطيعون التلون والتشكل بهذه السرعة؟ كم كنت ساذجة كالقطة المغمضة عينيها، وكم بدين شرسات حين حانت لهن الفرصة، لم يقلبن ظهر المجن شيئًا فشيئًا، بل مرة واحدة بلاحياء ولا خجل، يا له من زمن ليس فيه للمعروف مكان محفوظ!!.

حين شكوت إلى زوجي هذا الحال قال بكل برود: أنا أعرف منك بأخواتي، إنهن صديقات لمصلحتهن فقط ولا يعرفن غيرها، وكنت دائمًا أنتظر هذه اللحظة لتنكشف لك الحقيقة.

طبعًا أنا لا أستطيع أن أغير من طباعي، لكنني تعلمت درسًا مفيدًا!! أني صنعت المعروف في غير أهله.

«زوجة أخيكن»

أين تلقين بولدك!

كم أعجز عن وصف رد الفعل البارد لأختي حين أبلغتها عن بعض التصرفات السلبية لابنها عاصم قالت: ثقتي في ابني فوق كل تصور، ماذا تريدين مني أن أفعل؟ أن أقف له كشرطي المرور لأسجل له مخالفاته، دعيه يتحرك بحرية، فأنا ووالده فخوران به!!. هل أعتب على نفسي أن حذرت أختي من عاقبة الأمر؟! أم أعتب على أختي لتميعها في الرد؟! كلا، بل يجب أن أناقش معها أسلوبها في تربية أبنائها، وأبين لها خطأ توجهها في هذا الطريق، التربية الحديثة المفرطة في الثقة، المتمادية في جعل كل الأمور تبدو طبيعية ما دام معظم الشباب في سن أبنائنا يفعلونها دون وزنها بميزان الشرع الحكيم وتطبيقها على قاعدة الأخلاق الإسلامية!!.

عاصم مازال طالبًا في الصف الثاني الثانوي، لم يتم عامه السابع عشر بعد، ولم تظهر عليه علامات الرجولة ومع ذلك يتركونه يسافر مع أصدقائه إلى حيث يدرون أو لا يدرون في الداخل أو الخارج ويعطونه من المال ما يكفيه وزيادة، بحجة أنهم يبنون فيه الثقة والاعتمادية في نفسه!!.

وحين أراد الاشتراك في الانترنت سمحوا له بذلك بدون أن يتابعوا معه المواقع التي يدخل إليها أو حتى يجلسون معه ليناقشوه ويوجهوه، ومع أن والديه متعلمان لكنهما لم يحاولا الحديث معه حول هذا الموضوع أو ما هي الفوائد المتحصلة من الإنترنت، بل افترضا وجود رقابة ذاتية عنده، وأوكلا إليها مهمة تحصينه وحمايته، إنهما يعلمان تمامًا بحكم اطلاعهما أن المسألة لم تعد مجرد صور فضائحية، بل تجاوز الأمر حدود التشويش على العقائد والأفكار وزلزلة القناعات الراسخة في النفس ليصبح المرء مسلمًا ويمسي كافرًا والعياذ بالله.

لقد حاولت مناصحة أختي وذكرتها بالقدرة على معرفة الملفات التي يحتفظ بها ابنها والمواقع التي يزورها حتى تطمئن على ابنها لكنها نفضت يديها في وجهي قائلة: هل تريدين أن أهدم العلاقة التي بيننا، لقد ربيته على أن أعطيه الثقة وألا أكون رقيبة على تصرفاته، وأنا واثقة أنه يستخدمها في حدود المعقول.

حقًا نحن قد نثق في أبنائنا ولكننا لا يمكن أن نثق في الشيطان ولا في رفيق السوء ولا في النفس الإمارة بالسوء وهي تتنازعه في كل حين، خاصة في هذا العصر المعلوماتي الذي أصبحت فيه أبواب الفتن مفتوحة على مصراعيها في ظل العولمة والقرية الكونية دعيه يسافر ما دام صغيرًا ويتعود على أجواء الحرية نوعًا ما حتى عندما يكبر لا ينفلت هذه هي القاعدة التي تنطلق منها في تربيته، إن كثرت القيود تدعوه إلى التمرد وتحطيمها، لقد جهلت أن هذه القيود هي حدود الشرع المطهر التي جاء بحفظها ومعاقبة من يتجاوزها!!

هل تصدقون أن شابًا في مثل سنه يأتي متأخرًا في ساعات الليل الأخيرة في الإجازة ولا يسأله أهله أين كنت؟ ومع من تسهر؟ وعلى أي شيء يسهر؟ ولماذا؟ لأنهم يحترمون مشاعره وخصوصياته؟! ويخافون عليه أن يتعقد من كثرة السؤال والتحقيق معه عند الدخول والخروج ومن ثم يخسرونه!!.

ثم إنهم لم يلاحظوا عليه تغيرًا في شكله أو هيئته أو مشيته مما يدعو إلى الريبة، وهم يعرفون أصدقاءه!! قلت لأختي: ومن هم أصدقاؤه؟ قالت: ولد فلان، وولد فلان..، وماذا تعرفين عنهم أكثر؟!، لا شيء، يكفي أنهم أبناء عائلات وأهلهم محافظون!!. أبناء عائلات وأهلهم محافظون الولد يقف أمام المرآة يتهندم ويمر صديقه بعد العشاء ويذهبان إلى السوق، هي تعلم ذلك، شاب صغير بكامل شياكته يذهب إلى السوق بعد العشاء لماذا؟ تضحك ملء فيها وتقول: إن هذا دليل على النمو الطبيعي للولد؟ كل الشباب هكذا!! فترة وتمر بسلام!!.

فلسفتها أنه يجب أن يمنح الحرية ليخطئ ويتعلم من خطئه، وأن فساد الشباب ناتج من أن أهلهم يكتمون حريتهم ويخرسون أصواتهم، ويملون عليهم تفكيرهم فينفلت زمام الشباب وينجر بسرعة نحو الهاوية!! نعم ولكن ليست هذه هي الحرية التي يجب أن يمنحها، وليست هذه هي الثقة التي يُعطى إياها، إنها كالدواء يؤخذ بوصفة طبية، وبجرعات محددة تناسب سنه وطبيعته ليقع - بإذن الله - الموقع المحمود وإلا كان وبالًا عليه وسببًا في فساده وانحرافه وهلاكه.

أنا لا أقول: ابخلي عليه، بل أعطيه مالًا.. ما دام الله قد وسع عليكما في الرزق ولكن عطاء بحدود وصرف بحدود وفي حدود المألوف، أما أن يكون المال في يده كالرز يبعثره بلا حسيب ولا رقيب فهذه هي الحالقة التي تحلق دينه وأخلاقه إلا أن يعصمه الله سبحانه، مال وشباب وفراغ وسيارة وجواز سفر وثقة عمياء وحرية مهلكة!! ترى إلى أي واد سحيق تلقين بولدك؟!!.

شهادة تفوقه يا أختي ليست كافية لتجعلك توقنين برجاحة عقله وصلاح قلبه فافهمي ذلك رعاك الله ووفقك للخير(*).

«أخنك»

❀❀❀

(*) مجلة «الدعوة».

وانفرط عقد الأسرة نتيجة غفلة مني!

لم أكن أدرك أنني أغرس خنجرًا في خاصرة الأسرة، حينما رأيت ابني الوحيد يتعاطى التدخين، وتغافلت عن ذلك حتى لا يضربه والده؛ على أمل أن يترك ذلك السلوك، وأخذتني العاطفة وتغاضيت عنه، حتى تم استدراجه من قبل مجموعة الشر التي يصاحبها إلى تجريب المخدر بحجة أنه مجرد منبه ومنشط أيام الاختبارات وليت المسألة وقفت عند هذا الحد بل تعدت ذلك بكثير حيث أصبح ابني مدمن مخدرات، ولاحظت ذلك من خلال عينيه الحمراوين دائمًا وشروده الذهني، وعدم المبالاة في تصرفاته، بل وظهور التبلد في سلوكه حتى أخته (الشابة) لم يعد يحفل بأمرها ماذا تلبس، أين تذهب، من هنَّ صديقاتها؟؟.. كل هذه الأمور لم تعد تهمه، على الرغم من أن مسؤوليته تضاعفت بعد موت والده في حادث سير مما ضاعف مسؤولياتي وهمومي، لم أتعود على استخدام القوة أو الشدة معه، بل اعتاد هو أن يأسرني بحديث عاطفي لينتزع مني ما يريده صرت أبدو أمامه طيبة أكثر من اللازم.

انفرط عقد النظام والانضباط داخل البيت صار مجلسه ملتقى لشلة الهوى، حيث أصبح أصدقاؤه يرتادون منزلنا؛ بحثًا عنه وحرصًا على ملاقاته بشكل يومي، وهذا أتاح الفرصة لأن يرى بعضهم ابنتي التي في بداية سن الشباب، وهو غير مكترث لذلك.. بل جميعنا لم يكن يخطر ببالنا ما حدث، في ظل هذا الوضع ضاعت الدراسة وانحدر مستواه التعليمي إلى درجات سحيقة بعد أن كان قبلها من الأوائل، فتحدثت معه كثيرًا دون جدوى، ويبدو أنه قد تخطى مرحلة التأثر بالنصح والتوجيه؛ لأنه كان متأخرًا جدًا حاولت معه كل الأساليب لإقناعه بالابتعاد عن تلك المجموعة، وكانت حجته في كل مرة أن هؤلاء من خيرة الأصدقاء وأنهم يحبونه ولا يرضون له السوء، ولا

يستطيعون البعد عنه، أو يتحملون غيابه كان بعض من العبارات تحمل سحرًا يدغدغ عاطفتي فتنطفئ ثورتي وأترك النقاش في الموضوع حتى توسعت دائرة الحريق في المنزل حين استطاع أحد أصدقائه أن يرى ابنتي حينما فتحت له الباب، حيث جاء يسأل عن أخيها، فأعجبته، وتحصَّل على رقم الهاتف وصار يحادثها هاتفيًا، محاولًا إقناعها بأنه يحبها ويسعى للزواج منها. لم يكن تصديق ابنتي وانسياقها وراء وعوده البراقة بأضعف من محاولة مراقبتي لها، ولم يكن أخوها أكثر حرصًا عليها من حرصه على مجموعته ومزاجه وهواه ورغم خوفي الشديد عليها، وحذري من ذلك الشاب وتلك المجموعة، فقد تسلل حديث الشاب المعسول إلى قلبها، وصارت تعيش تحت تأثير أوهامه، وتخديره، ولم أستطع إقناعها بخطورة الطريق الذي تسير فيه، لاحظتها أكثر من مرة تحادث ذلك الشاب عبر الهاتف، وعندما أسألها تنكر.

وتدعي أنها تكلم إحدى صديقاتها، فأصبحت أمام مصيبتين، كلاهما أشر من الأخرى، الكذب وهو مفتاح كل شر، والأخرى إقامة علاقة عاطفية مع شاب سيء وفاشل أما أخوها فقد انجرف في هذا الطريق بعد أن أكمل الثانوية دون الحصول على معدل يدخله أي كلية أو معهد، ولا حتى وظيفة، فظل يلازم شلة السوء، حتى وضعته الجهات الأمنية تحت المراقبة المستمرة وكان في كل ليلة يعود إلى المنزل قبيل الفجر يتثاءب.. ثم يواصل النوم حتى الظهر وفي إحدى الليالي لم يأت في موعده المحدد، بل لم نسمع وقع خطواته كالمعتاد حتى الفجر، فأصابني القلق ولم أذق طعم النوم تلك الليلة ولكن في الساعات الأولى من الصباح رن جرس الهاتف وكان في الطرف الآخر أحد رفقاء ابني الذي علم أن مكافحة المخدرات ألقت القبض على مجموعة من المدمنين والمروجين ومن بينهم ابني لم تكن ابنتي تعلم أن أخاها مدمن ولا حتى أصدقاؤه، فأصيبت بصدمة عند سماعها نبأ القبض على صديق أخيها الذي

أوهمها بالحب والزواج أما أبنائي الصغار فكانت أسئلتهم عن أخيهم أكبر من أن أجيب عليها إجابة مقنعة وهكذا تهاوت الأسرة أب غيَّبه الموت وأم عجزت. بل تهاونت في تحمل المسؤولية وتساهلت للحد الذي جعل الأبناء ينحرفون وابن في السجن بسبب المخدرات وبنت تجاوزت كل الأعراف والقيم والدين والأخلاق وأتاحت الفرصة لأحد الشباب أن يغازلها ويلعب بعقلها وصغار مندهشون مما يجري ولا يجدون له تفسيرًا، ولا يعرف أحد كيف يكون مستقبلهم ومصيرهم؟!! البداية كانت خاطئة، لذلك أنتجت هذه النهاية المأساوية المحزنة وكل ذلك بسبب التساهل والتهاون في أمور هي من صميم الدين فأنا الآن نادمة كل الندم.. ولكن بعد ماذا؟!! بعد أن حدث الذي كنا نخشاه، حيث لا ينفع الندم، وأنا التي تسببت في كل ذلك، وأرجو الله أن يسامحني(*).

❁❁❁

(*) مجلة «بنات اليود» العدد(٩).

تسليم القوامة والتنازل عنها!!

كالنخلة الباسقة كنت أنظر إليك، علو في شموخ، وثبات في نماء، لم ترهقني في مراهقتك، ولم تشيبني في شبابك، تزوجت وكانت فرحتي لك لا توصف، وأي أم لا تفرح بزواج ابنها البكر؛ خاصة إن كان في مثل تدينك وخلقك وعقلك، ذلك العقل الراجح الذي لا يوزن بالذهب ولا بالفضة.

كم أفضيت إليك ببعض أسراري، واستشرتك في شيء مما يعرض لي، وكان رأيك حصيفًا، وحلُّك حكيمًا.

تزوجت باختيارك، أخت صديقك الذي أعجبك خلقه، فأيقنت أنك أحسنت الاختيار وأسلمت أمري إلى الله. وها هي الشهور والشهور تتعاقب ناسفة في تعاقبها نظرتي إليك وحسن ظني بك وتساءلت مرارًا: ما الذي تغير في سعيد؟! هل اضمحلت تلك الحكمة في أفعاله؟ أم صغر عقله عن إدراك أبعاد ما يحدث؟ أم تراه الحب أعمى بصيرته؟! يبدو أن هذه مجتمعه تفسر كل ما يحدث الآن.

ولكن ما الذي يحدث الآن؟! إنه أمر مؤسف يدمي الفؤاد ويفتت الكبد، فزوجة ابني سعيد لم تكن هي الزوجة التي يتمناها والتي طالما حلمت بها لشخص مثله. كنت أحلم بزوجة ذات دين، رزينة، تحفظ له ماله وتحفظ عليها دينها وتكون خير عون له، وهو بهذا كان يمني نفسه، ولكنها لم تكن تلك أبدًا.

أين أنت يا بني؟! إنني لا أكاد أرى زوجتك في أي مناسبة صغيرة أو كبيرة إلا وقد أظهرت شيئًا من جسدها إما الصدر أو الظهر أو الساقين، أو تتبختر في مشيتها ببنطال ضيق، وهي لا تكاد تغطي كامل ذراعيها إلا في الشتاء!!. هل يعقل أنك لا ترى

لباسها قبل أن تخرج من البيت؟ أم أنها تخفيه عنك تحت العباءة؟ ربما أنها ترتديه عند أهلها دون أن تراها؟.

عذرتك في كل مرة أراها دون أن تكون معها ولكن حين تجتمعان فلا أجد لك عذرًا.

إنني آسى كثيرًا حين أراها وعباءتها فوق كتفيها والمخجل أنك أنت الذي أوصلتها بالسيارة، لماذا يا بني؟! ما الذي يشغلك عن النظر في شؤون بيتك وإصلاح أهلك وتعليمهنَّ أمور دينهنَّ؟ هل سلمت لها القوامة وتنازلت عن دورك؟ أتعجز أن تقول لها: بدلي هذه الثياب العارية؟ أو ارفعي عباءتك فوق هامتك؟ هل تخاف منها أم هي التي غلبتك؟!!. أين عقلك؟ أين حكمتك؟ أين فطنتك؟!.

لا أظن عاقلًا يرضى أن يترك نساءه في قصر للأفراح حتى ساعات الصباح الأولى بحجة أن الزواج لم يبدأ إلا متأخرًا أو لأنه زواج شخص قريب، فمن العيب أن يخرجوا قبل الضيوف!!. وأين تختفي الحكمة حين يكون الخروج من البيت هو الأساس؟! قل لي بالله عليك: كم يومًا تمكث زوجتك في البيت أربعًا وعشرين ساعة؟!.

الصباح في عملها وبعد العصر يبدأ مسلسل الزيارات، الملاهي، الأسواق، بل حتى المطاعم!! ليس لك هَمٌّ إلا تلبية طلباتها والركض خلف شهواتها... تضييع للأوقات دون ذكر الله، وتبديد للأموال، واختلاط من أجل لقمة طعام تباهي بها أمام صديقاتها!!. أين أنت يا بني؟!! لم أعدَّك أبدًا لمثل هذا!.

لا تقل لي: إن هذا الأمر في بداية الحياة وغدًا سوف أعلمها أو تتعلم، فالعود كما يقولون من أول ركزه وما أرى الأيام تزيدها في غيها إلا تماديًا. هي حقًا طيبة ولا تضمر شرًا لأحد، وتقوم بخدمتك جيدًا ولكن هذا يجب ألا ينسيك حق الله فيها فيجب أن تحافظ عليها وتصونها ولا تفرط في مسئوليتك وتترك لها الحبل على الغارب، فالمرأة ناقصة عقل ودين، فافهم هداك الله، أنا لا أقول: ضيق عليها الخناق أو امنعها

من الخروج أو صمم لها ملابسها ولكني أسألك فقط أن تناصحها وتوجهها كما كنت توجه أخواتك قبلها حتى استقمن وعرفن الطريق الصحيح.

وحين ترى منها تمردًا واعوجاجًا وأنا أربأ بها عن ذلك فلك أن تقومها بما شرع لك.

أي بني!! حين تقرأ هذا الكلام فثق أنه لولا الله سبحانه ثم تشجيعك لي بدخول دار التحفيظ بعد وفاة والدك لما استطعت أن أفهم من أمور ديني شيئًا فقد كنت في جهل وعماية فأصبحت في نور وهداية. فليتك تأخذ بيد زوجتك وتدلها على طريق النور الذي أرشدتني إليه لعلها تتعلم في دار التحفيظ ما عجزت عن إيصاله لها.

وإلا فإنك تهبط درجات السلم درجة درجة دون أن تدري وحين تكون في أسفله وأعوذ بالله من تغيّر الحال.. سترى أن الصعود مرة أخرى سيكون صعبًا لذا ستؤثر الدنيا على الآخرة وستضيع نفسك ومن تعول فارجع البصر وأمعن النظر فيما حولك لعل الله يرزقك أسباب الهداية والثبات(*).

«والدتك»

❀❀❀

(*) مجلة «الدعوة».

اللوبي العائلي!!

أخت زوجي هي زوجة أخي في الوقت ذاته، خطبتها له لما ظهر عليها من أمارات معينة كان يبحث عنها في شريكة عمره، وما كنت أظن أن تشكل هي وأمها وأخواتها لوبيًا عائليًا يمارس ضغطه في كل حين ليجعل من حياتي صورة منسوخة من حياتها، أفعل ما تفعل وأمتنع عما تمتنع، بل أحب وأكره مثلها فإن كان زوجها الذي هو أخي يفعل معها شيئًا لا تحبه، يجب أن يفعل زوجي معي نفس الشيء.. لماذا؟ إن أخاها يفعل ذلك هكذا تقول أمها!!. وكأنها تعني أن نرد الصاع صاعين، أن نريه قوتنا في أخته!!.

لكل إنسان سياسته التي بناها على قناعات ذاتية أو على خلفيات اجتماعية، فلما كان أخي يرفض رفضًا قاطعًا حضور زوجته للحفلات التي تقام في الاستراحات ولما أعيتها الحيل معه بدأت تعيب علينا هذا الأمر،ولما كانت زيارة ابنة عمها في استراحة قالت أم زوجي لابنها في حضوري: بصراحة حفصة المفروض ألا تذهب للزيارة لأن أخاها يوسف رفض أن تذهب أختك، واحدة بواحدة.

إنهم لا يتوانون عن شن حملة ضدي ومقارنة كل صغيرة وكبيرة في حياتنا ببعض، وكأننا بذرة انقسمت قسمين، قالت لي إحدى البنات ذات مرة: أنت تذهبين لأهلك مرتين في الأسبوع وأخوك يشدد على أختي فلا تأتي إلا مرة واحدة.

حتى نزولي إلى الأسواق يحاسبنني عليه، فإذا كان أخي قد أخذ زوجته إلى السوق واشترى لها حاجتها مرت أموري طبيعية، أما إن كان قد رفض فإن هذا فعلًا سينسحب علي وسأسمع عبارات اللوم والتجريح لموقف أخي وعبارات التأليب لزوجي ليقف موقفه فابنتهم التي هي أنا ليست أحسن حالًا من ابنتنا.

لقد حاولت جماعة الضغط بكل جهدها أن تضغط على زوجي ليجعلني أترك الوظيفة فضيقت علي، وقامت أم زوجي بطرد الخادمة، وتخلت عن حضانة أبنائي وبدأت تمارس تعسفها في حقي، أخرج من عملي وأمر أبنائي عند أهلي وأعود على البيت وأجهز الغداء، ويعلم الله كم كانت تلك الفترة عصيبة لكنني تحملت، كل هذا لأن لأخي رفض عمل زوجته وألزمها القرار في البيت.

إنهم بحكم هذا النسب صاروا يطلعون على خبايا أهلي، ويحاسبونني على كل شاردة، إن اشترى أخي لأمي شيئًا طالبوا زوجي بمثله فإن أبى كنت محل همزهم ولمزهم، هم يعلمون تمام العلم أني لا أرد زوجي عن خدمة أهله لكنني لم أعتد أن أفرض عليه شيئًا وهو يفهمهم جيدًا ولا يقصر فيما دعت إليه الحاجة وظهرت أهميته.

إن حالي مع أهل زوجي تذكرني بحملة الانتخابات في بلاد الغرب، حيث يعمد الخصوم إلى نبش الماضي البعيد للعضو المرشح للبحث عن قشة تقصم ظهره وتسقطه من لائحة المرشحين، فما أن يحدث شيء لأختهم حتى أجدهم يذكرون زوجي بمواقف سابقة مثله أو تختلف عنه عفا عليها الزمن ونسيها الناس ومرت بسلام ليثيروه ضدي أو يحرضوه على علم لا يسرني أو يكدروا خاطره ويفسدوا علي حياتي وكأنهم يتلذذون بألمي ويستمتعون بتعاستي.

لقد صرت أضيق ذرعًا بأخته وأكره مجيئها لأنه يعني لي الكثير من المتاعب، فهي تأتي لتعرض صفحة من حياة أهلي، وصفحة من حياتهم مع أخي ثم تبدأ في صب جام غضبها علينا فإن كان هناك خلاف بينهم فهذا يعني أن تعبس في وجهي وألا تسلم علي وأن تأخذ بذكر ما يضايقني مما لا أحب أن يطلع عليه أحد، وهي تعلم أنني لا أفعل الشيء نفسه مع أهلي.

أنا أعلم أن هناك الكثير من المبالغات في كلامها عن أهلي، ثم إنها تخفي الحسنات، وتضخم السيئات، ولا تكاد تذكر أهلي بخير ومع هذا فأنا لا أعاملها بالمثل، ولم أحاول مرة واحدة عقد المقارنات بين حياتي وبين حياتها، ولم أسع للحصول على كل ما تحصل عليه أو تقليدها في شيء، فأنا أعرف موطن سعادتي وأعرف أن هناك فروقًا بين الناس وأنه حتى التوائم لا يمكن أن تتشابه في كل شيء.

إنني فقط حزينة لأجل أنني خطبتها لأخي، إنه يستحق امرأة أكثر تعقلًا، وأكثر صمتًا، وأقل تذمرًا، فأخي ليس سيئًا، ولكنه منضبط وذو مبادئ، وأنا أيضًا مازلت منضبطة وأتحلى بالصبر والحلم فافهمي هداك الله(*).

«زوجة أخيك»

❀❀❀

(*) مجلة «الدعوة».

البنيان المتهدم والشقاق!!

من أين أبدأ حكايتي؟ ليس هناك نقطة واضحة على خط الحياة أستطيع أن أقول: إنها نقطة البداية، ولكنها ليست بهذا الحجم، إنها تراكمات سنين كانت كوميض نار تحت الرماد غفل عنه حتى كاد أن يشتعل ويأكل الأخضر واليابس. كنا كأخوات شقيقات مثل البنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، وبفعل عوامل تعرية كثيرة بدأت الشقوق والثقوب تنال من تماسك هذا الجدار حتى حولته إلى بنيان متهدم.

باختصار لقد فرقتنا المظاهر وحب الدنيا واللهث وراء الذات، نحن الشقيقات بتنا متشققات، متنازعات لا نتفق على رأي ولا نجتمع على كلمة، كل واحدة تفرض رأيها بالقوة، كاميليا تستأثر بحصة الأسد دائمًا في كل شيء خاصة في الغدوات والروحات فحين لا تتسع سيارة أهلي إلا لشخص واحد فإنه بالتأكيد هي، والويل لمن يحاول أن تحجز مكانها فهي الأولى دائمًا لأنها تحب السيادة والظهور أمام الناس بمظهر الشخص المهم الذي يبحث عنه الآخرون ويتسابقون لدعوته.

وهالة أنانية كل ما يهمها مصلحة نفسها ومصلحة أبنائها فأينما تجدها فهي تسعى وراءها لا تفكر في أم ولا أخت فضلًا عن غيرها، كم مرة ألغت اجتماعًا لنا في الاستراحة لأنها مرتبطة بموعد آخر، أو عند صديقة أو مدعوة لحفلة وهي لا يمكن أن تفرط في واحدة منها ولا يمكن أن تؤجلها بينما نحن جميعًا يمكننا التأجيل والصبر فلم العجلة!!.

أما رقية فتعيش في عالم آخر بين صويحباتها وصديقاتها في نزهات وزيارات بينهن ينزلن إلى الأسواق معًا أو يجتمعن في مدينة الألعاب أو يخرجن إلى أحد الشاليهات ونحن أهلها وأخواتها في الوقت الضائع تسأل عنا، ساعة من نهار تمر مرور الكرام ثم تغادر، لا تعلم ما يجري حولها من أحداث من التي ولدت ومن مرض، وماذا حصل في بيت أهلي ذلك اليوم!! حين أحدثها في أمر أجدها لا تعي ملابساته ولا تداعياته تقول ببرود: قولي لي القصة من البداية أنا ابس عندي خبر.

وأختي شيماء غارقة في عالم الموضة، متشربة تعاليمها، كل همها كيف تزيل هذه الحبة من وجهها، وكيف تبيض هذه البقعة من جسدها وما هي أفضل طرق تخسيس الوزن، ثم إنها دائمة اللوم والتقريع لأخواتي لماذا لا يبدين اهتمامًا واضحًا بأناقتهن وهي تقيس الناس من حولها حسب مظاهرهم، وحين تدعونا لحفلة في بيتها فإنها مرارًا وتكرارًا تؤكد على البعض الاهتمام بهندامهن وتدقق في السؤال عن كماليات صغيرة كالحذاء والحقيبة وغيرهما.. بأسلوب يؤذي الطرف الآخر، مما يدفعهن أحيانًا لترك حضور حفلتها وفي أقل الأحوال تنشغل أذهانهن بهم الإجابة!!.

أما إيناس فهي قوية الشخصية، نافذة الكلمة، سليطة اللسان مع الأسف الويل لمن يناكفها، إنها في خصام مستمر مع هالة لأن مصالحها كثيرًا ما تتعارض، ومع كاميليا لأنها لا ترى أهليتها للسيادة ومع شيماء لأنها دائمة الانتقاد لها في طريقة لبسها وفي ذوقها، ومعي لأن أسلوبي في تهذيب أبنائي لا يعجبها!!.

وهكذا نحن، لنا مشارب شتى، ومن هنا كان الاختلاف والفرقة تنشأ بيننا بين آن وآخر، يوم كانت البساطة والأريحية تغلف حياتنا كنا متحدين متحابين، تجمعنا الكلمة الوحدة، والهم الواحد، كنا نبحث عن بعضنا ونحرص على اللقاء الأسبوعي في بيت والدي، أما وقد تعددت الهموم وتفرقت الدروب فما عاد لنا مساحة مشتركة نركض فيها ولا وجود قاسم مشترك يجمعنا مما أحدث هذه التصدعات الكبيرة في جدار علاقاتنا.

إن ما يحكم علاقتنا الآن ليس الحب والاحترام والتضحية، بل هو المصالح والمنافع، فكل واحدة تود أن يسير الجميع في اتجاهها وأن يحملوا نفس أفكارها.. ثم يجب أن تنفذ كلمتها حتى ترضى. اتفقنا ألا ندع والدتي وحدها دائمًا بل يجب أن نتناوب في زيارتها كل يوم واحدة ساعة من نهار أو تزيد حسب المقدرة، انفض الجمع دون أن نتفق فهذه لا يناسبها اليوم وتلك لن تفرط في نومها، والأخرى تثاقلت المسافة، ولم تبد أي واحدة منهن رغبة في تضحية أو قدرة على المساعدة، تفرقنا وفي أنفسنا الكثير مما لم نستطع قوله علانية.

ولما أردنا أن نقدم لوالدتي هدية بعد خروجها من المستشفى معافاة، كانت هناك مائة مكالمة قد جرت قبل أن نقرر ما هو هذا الشيء، وحين قررنا أخيرًا مات المشروع في مهده إذ إن هالة لا تريد أن تدفع مثل البقية وكاميليا أصرت على لون معين أما إيناس فلأنها ستقوم بشرائه فقد فرضت شروطها الصارمة!!.

هل نحن حقًا أخوات خرجنا من رحم واحدة، هذه هي الحقيقة في الأوراق الرسمية.. ولكن في الواقع لا نبدو كذلك، فهل يظن أحد أن أختًا حين تدعو أخواتها إلى بيتها تقدم لهن الباقي من طعامها احتقارًا لهن لأنهن لسن بمستوى يليق بها، فهذا الكعك صنعته لأبنائها بالأمس ولم يأكلوه وهذه السلطة من باقي الغداء اليوم.. أما حلى القهوة فهو غريب ولكنه قليل لأنه من النوع الفاخر اشترته حين جاءتها صديقتها قبل يومين! إنها أختي كاميليا أما شيماء فإنها لا تدعونا أبدًا إلى المناسبات التي تأتي فيها صديقاتها وذلك أن مظهرنا لا يرتقي إلى المستوى المطلوب، ثم إنها تخص صديقاتها بمناسبات الأفراح والأحداث السعيدة وتترك أخواتها.

لما طلبت منها عقدها الأسود رفضت بحجة واهية بينما سمعتها تكلم صديقتها تطلب منها أن ترجعه لها لأنها في حاجة له!! الحال هنا مقلوب، لا شيء يميز الأخت، لا تضحية من أجلها، إنها مجرد شيء اعتادت عليه النفوس فهو لها لازم، ولأن أساس العلاقة هش وضعيف فإن كل أحد استطاع أن يوجهها الوجهة التي يريد، فهذه تسمع من زوجها وتريد أن يسمعه الجميع، وتلك بحكم بناتها تصرفاتها فتزن الآخرين بها وهكذا، إننا لنبقي أخوات متآخيات يجب أن ننبذ خلافاتنا ونمد أيدينا لنصافح في فضاء الأخوة الرحب(*).

«أختكم»

(*) مجلة «الدعوة».

ماجدة وفردوس وفائزة وعلياء وعتاب

خمس زهرات فواحات يعطرن أرجاء بيتنا، رزقنا الله بهن واحدة إثر أخرى فحمدناه على هذه النعمة، فالبنات كالأولاد نعمة من عند الله وعافيتهن وصحتهن نعمة أخرى.

كنت في كل مرة أزف إلى زوجي نبأ حملي أسأله ماذا يتمنى ولدًا أم بنتًا، فكان جوابه لا يتغير أبدًا (ما جاء من الله حياه الله، المهم أن يكون المولود بصحة جيدة).

جاءتنا البنت الثانية بعد ماجدة ثم الثالثة ثم الرابعة وها هي الخامسة تخطو خطواتها الأولى، ووالله ما رأيت في وجهه أثر تكدر أو ضيق، بل كان يستقبل خبر ولادتهن بكل سرور وكان يسأل عني وعن المولودة بكل لهف ويسارع إلى زيارتي في المستشفى ويحمل الصغيرة ويضمها إلى صدره ويسألني عن اسمها ويبحث لها عن أجمل الأسماء، ثم إنه يدللهن، فهذه أميرة، وتلك زمردة، والأخرى زهرة، وهكذا.

إن ناداه أحدهم بأبي محمد قال: «لا، أنا أبو ماجدة، محمد لم يأت بعد إذا جاء كنوني به». عندما يدخل إلى البيت تتعلق به الصغيرة وتمسكه الأخرى من يده ثم تجلسه في الصالة وتطلب منه أن يرفعها فوق ظهره ويمشي بها كالحصان، وتتعلق فائزة بكتفيه طالبة منه أن يسير بها في البيت فلا يرد لهن طلبًا حتى وإن كان متعبًا أو عائدًا من مكان بعيد فتارة يحمل هذه وتارة يرفع أختها فلا تسمع إلا صوت ضحكاتهن وشغبهن، تستعجل كل واحدة دورها.

أما بنات المدارس فإن حاجاتهن لا تنتهي، فهن كل يوم يطلبن شيئًا جديدًا، وهو في كل يوم يحضر لهن حاجاتهن لا يكل ولا يمل، وإن كان متعبًا نوعًا ما أو لا يجد رغبة في الخروج من البيت أجَّل الطلب لوقت لاحق ولكنه سرعان ما يتراجع حين يرى في عيون البنت شيئًا،إنه لا يحتمل حزنهن، حتى إنه ذات يوم كان عائدًا من مناسبة قد

دعي لها في ساعة متأخرة من الليل فوجد ماجدة قد كتبت له ورقة بحاجتها إلى لوح فلين وبعض الألوان لمادة التربية الفنية، فركب سيارته واتجه إلى المكتبة، فلما وجدها مغلقة عاد إلى البيت وسألني أي درس مادة التربية الفنية؟! فقلت له: إنه الدرس الخامس، فأمرني أن أتصل به الساعة التاسعة لأذكره في العمل بهذا الغرض وحقًا اشتراه وذهب به إلى مدرستها في نفس اليوم.

لم أسمعه ذات يوم يتأفف من رزقهن وكسوتهن بل أراه دائمًا يشتري لهن ملابس جميلة وحين أطلب منه إكمالها ببعض الحلي والإكسسوار يبادر فورًا إلى الدفع فهو يرى أن سعادتهن هي مطلبه الحقيقي.

وإذا ذهبن معه إلى السوق قامت كل واحدة باختيار نوع من الجبن مثلًا أو الحلوى أو العصير يختلف عن الأخرى فتراه يشترى لكل واحدة منهن ما تختار، لا ينهرهن أو يفرض عليهن شيئًا. وهو مع هذا الدلال كله لا يحب التفريط أو التقصير، فحرصه على سترهن مقدم على كل شيء فحين يخرجن معه إلى مكان عام فإنهن يخرجن متسربلات إما بحجابهن أو لباس ساتر طويل.

إن النقاش مع الأبناء وأخذ رأيهم في بعض الأمور مما يعزز الثقة بأنفسهم، لذا فإن (أبا ماجدة) يحب أن يحاور بناته ويسألهن رأيهن، بل ويعمل به أحيانًا يعطيهن الحرية في اختيار وجهة السفر مثلًا أو المكان الذي نستجم فيه أو الركن الذي نضع فيه باقة الورد، مما جعل من ماجدة محاورة ممتازة تحاول دائمًا الدخول مع والدها في نقاشات هادفة وأسئلة بناءة.

إن الرفق مع الأبناء مطلوب ولكنه مع البنات بالذات أمر واجب وضروري، لذا فإنه يعاتبني كثيرًا إن رآني أعنفهن في أمر ما أو أقسو عليهن لمصلحتهن شأن معظم الأمهات مما يجعلني أندم كثيرًا على فعلتي وأتمنى حقًا أن أكون مثله.

إنني أحمد الله كثيرًا أن رزقني بهذا الزوج الصالح المتفهم لسنة الله في خلقه: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩]، بل إنه حقًا يحب البنات ويفرح بهن لأنهن حجاب من النار، ولأنهن أكثر رحمة وعطفًا من الأولاد(*).

«زوجك»

❁❁❁

(*) مجلة «الدعوة».

لماذا يا أبي؟؟

كان ماجد شابًا لم يتجاوز السابعة عشر من عمره، والده كان من أكبر التجار في المدينة التي يعيشون فيها، تعرَّف ماجد على إمام المسجد المجاور لهم، تعلم منه ماجد حُبَّ الله ورسوله ﷺ، بدأ نور الإيمان يشع من وجهه، ابتسامة جميلة تعلو شفتيه دائمًا، كان ماجد يعامل والديه بحب وتفانٍ. بعد فترة بدأ والد ماجد يلاحظ تغير ماجد؛ فهو لم يعد يسمع صوت الموسيقى الصاخب الذي كان يخرج من غرفة ابنه، أصبح ماجد كثير الهدوء، دائم الذكر، كثير القراءة للقرآن، ولكن أباه لم تعجبه حال ماجد.

وبعد أيام أخذ الأب يضايق ابنه ماجد فيقول له: ما هذه السخافات التي تفعلها؟ لماذا تقرأ القرآن؟ هل هذا وقت صلاة؟ هل مات أحد؟ عندما كان ماجد يستيقظ لصلاة الفجر يقوم بإيقاظ والده، ويكاد الأب يفقد صوابه!! إنه لم يصلِّ ركعةً واحدة منذ أن تزوج، والآن يأتيه هذا الابن ليطرق عليه الباب في الليل ليصلي فيبصق في وجه ماجد، في أحد الأيام ذهب والد ماجد إلى إمام المسجد وقال له: لماذا أفسدتم عليَّ ولدي؟ ابتسم إمام المسجد وقال: نحن لم نفسد ولدك؛ بل أرشدناه إلى طريق الخير وإلى سبيل النجاة، فابنك الآن يحفظ ستة أجزاء من القرآن، وهو حريص على الصلاة، فقال الأب: أيها الحقير لو رأيت ابني معكم مرة أخرى أو يذهب إلى حلقاتكم أو دروسكم لأحطمنَّ مفاصلكم ثم بصق في وجه ذلك الإمام، فقال له الإمام: جزاك الله خيرًا، وهداك ربي.

اقترح والد ماجد على ابن أخيه (فهو شاب اشتهر بفساده وفسقه) أن يأخذ ولده إلى إحدى الدول التي اشتهرت بالفساد والمُجُون حتى يُبعده عن الاستقامة وعن أهل الصلاح وعن إمام المسجد.. قال ابن العم لماجد: ما رأيك أن نذهب إلى إسبانيا؛ فهناك

الآثار الإسلامية والعمرانية المشهورة، وكان ماجد في بداية الاستقامة فذهب معه إلى إسبانيا.. كان والد ماجد قد تكفَّل بالإقامة والتذكرة، سافر ماجد مع ابن عمه وأقاما بفندق بجوار المراقص والملاهي الليلية، كان ابن العم يخرج إلى تلك المراقص وماجد لا يخرج معه بل يبقى في الغرفة، ومع مرور الأيام أصبح ماجد يخرج مع ابن عمه إلى تلك المراقص، شيئًا فشيئًا أصبح ماجد يتابع العروض المسرحية والرقصات مع ابن عمه.

بعد أيام ترك ماجد الصلاة التي كان يصليها في الفندق، والأذكار التي كان يرددها في الصباح والمساء، عرض ابن العم على ماجد في أحد الأيام سيجارة محشوة بنوع من المخدرات فأخذها ماجد وسقط في بئر الظلمات، أصبح ماجد لا يُبالي (سوادٌ حول العينين، سهر ومسكرات، زنًا وراقصات، وتضييع للصلوات)، كان ماجد بين كل فترة وفترة يتصل بأبيه ليرسل له مبلغًا من المال، فكاد الأب يطير من شدة الفرح، تطور الأمر فماجد أصبح يستعمل الهيروين، انتهت مدة الفيزا وابن العم يحاول إقناع ماجد في العودة إلى الوطن، ويصرخ ماجد ويقول: أنا لا وطن لي ولا والد لي ولا أسرة لي؛ أنا وطني ووالدي وأسرتي ربع جرام من المسحوق الأبيض.

عاد ماجد مع ابن عمه وكان في استقبالهما والد ماجد، فرأى والد ماجد أنَّ ابنه قد تغيَّر تماما، اقترب ماجد من والده وصفعه على وجهه!! عاد الأب مع ابنه وحاول أن يعالجه ولكن لا فائدة، ضرب ماجد والده أكثر من مرة، سرق الكثير من ذهب والدته، وأصبح يهدد والده بالسكاكين لكي يحصل على المال، في يوم من الأيام ذهب الأب إلى إمام المسجد وقال له: سامحني أنا بصقتُ في وجهك أنا أسأت إليك أنا عاملتك بغير أدب، ولكن الآن أصبح ماجد أسيرًا للمخدرات، أرجوكم أرجعوه كما كان، أرجعوه للصلاة، أرجعوه لي جميلًا طاهرًا، ابتسم الإمام وقال: يا أبا ماجد ادعُ الله بصدق، فهو الذي بيده الهداية وحده.

بعد أسبوعين تقريبًا من هذا اللقاء كانت جنازة والد ماجد وأمه يُصلَّى عليها في ذلك المسجد فقد قتلهما ماجد خنقًا لأنهما لا يملكان أموالًا للمخدرات. ومن خلف القضبان كانت دموع ماجد تجري غزيرة: لماذا يا أبي؟! ألم يأمرك الإسلام بالرفق بأبنائك؟!!(*).

❁❁❁

(*) شريط «لماذا يا أبي؟» للشيخ/ محمد الصاوي.

ذات الوجهين

وقفت أمام المرآة، أكملت زينتها، تأكدت من أناقتها البذلة رائعة، ما رأيك فيها؟. هذا الذي تفعلينه حرام قلت لها ذلك وهي تهم بارتداء تنوره واسعة فوق البنطلون حتى لا يفطن زوجها إليها، فهو الآن في الخارج ينتظرها ليأخذها إلى تلك المناسبة.

مسكين الرجل الصالح حين يبتلى بواحدة من أمثال أختي مشيرة، هو يأمرها بالمعروف وينهاها عن المنكر ويوجهها لفعل الخير وهي كمن يعطي الخير فيقول لا أجد له إناء، تعرض عنه وتستهزئ به، حين تكون في بيتها، فإنها لا تركب السيارة معه في نفس الوقت، بل تتأخر قليلًا حتى تتمكن من لبس ما تريد مما يمنعها منه، ثم تلبس العباءة فوقه، ثم تخرج وكأنها حمل وديع ليوصلها إلى المكان الذي دعيت إليه بشكل لا يرضيه. أما إن كانت عند أهلي وستذهب معهم فتعال وانظر لن تقول أبدًا إن هذه زوجة رجل صالح، فعباءتها زينة، وبنطالها ضيق، وفستانها عار أو شفاف، الناس يلومونه وهو غافل عن ذلك، فهي مع الأسف كالحرباء تتلون باللون الذي يناسب المقام، فهي ترضيه حين يراها حتى تكسب وده وجيبه أيضا، وتخالفه حين لا يراها لأنها لا تحب أبدًا أن توصم بالمعقدة أو المطوعة!!.

يا لها من مطيعة، لقد قالت لنا مرارًا إنه يحلف عليها ألا تلبس البنطال أو العاري أو العباءة المتبرجة، وهو يقصد حين لا يكون حاضرًا، ومع ذلك تنفذ حين يراها وتخالف حين يغيب!!.

فصديقات السوء من الزميلات والقريبات يحطنها بنصحهن الدامي ويرشدنها إلى طريق الضلال وعصيان الزوج، حذرتها مرارًا من عاقبة ذلك، ذكرتها أن هذا الإثم

عظيم، هددتها بأن يصل الأمر إلى زوجها ولكنها لا تبالي، تعلم تمامًا أنني لن أسعى في خراب بيتها، فهي أختي الأكبر مني وزوجها غنيمة، خسارة فقدها.

إنها تستغفله، لها في بيتها عباءة الصالحات تلبسها على الرأس وليس لها أكمام، وعند أهلي لها عباءة أخرى تساير الموضة وتنبذ الحجاب، وإذا أوصلها لبيت أهلي حتى تذهب معهم غيرت وبدلت وخرجت بشكل ثان فزوجها معقد لا يمكن أن يفهم متطلبات العصر!!.

اجتمعنا ذات مرة في مدينة الألعاب، تعجبت زوجة أخي منها، هي وبناتها يرتدين بناطيل ضيقة قالت لها: ألا يراكم زوجك؟ قالت: هو أصلًا لا يعلم أين نحن، قلت له: سنذهب إلى عمي للسلام عليه، ثم سنجتمع عند إحدى أخواتي، لقد حضرنا مع السائق.

هي لا تشعر أبدًا بالامتعاض أو الحرج حين ترى علامات التعجب بادية على من يعرفها ويعرف زوجها، بل تشعر بالفخر والاعتزاز، فهي ترى أنها بهذا الفعل تثبت قوة شخصيتها وجرأتها وتحضرها في وجه تخلف زوجها ورجعيته، إنها ظالمة تعيش في كنف رجل يخاف الله فيها ويؤدي لها حقوقها، ويحسن الظن فيها وهي تهضمه حقه وتغشه وتؤلب رعيته ضده وتخادعه وهذه أسوؤها!.

لم يكن زوجها في بداية حياتهما مستقيمًا ولكن الله منَّ عليه بالهداية والاستقامة فيما بعد، كرهت هذا في البداية لأنها ظنت أن التزامه سيحرمها الكثير من المتع، وهو جاهد معها كثيرًا ليصلح حالها، فحدثت مصادمات ومشاحنات، كان يدللها، يرخي لها الحبل، يجيب طلباتها، ولكن بالمقابل يريد منها أن تكون امرأة صالحة، تلتزم بحجابها الشرعي، تحافظ على الصلاة، تترك أماكن اللهو والعبث، وهي تريده يدًا سخية وعبدًا مطيعًا دون أن تبذل له شيئًا يحبه.

لقد أرشدتها قرينات السوء إلى هذه الطريقة لتكسب رضاه وترضي نفسها، فهي أمامه كما يحب لباسًا وحجابًا ومن خلفه كما تحب هي، تشتري مجلات السوء وتخبئها في خزاناتها، تستعير من صديقاتها أشرطة الغناء والأفلام العربية والأجنبية وتحفظها بعيدًا عن عينيه وإذا غاب سهرت معها حتى الفجر، تركب معه وعباءتها على رأسها وتركب مع السائق بعباءة على الكتف مزخرفة وطرحة خفيفة.

لله در الصالحة مبتلاة برجل فاسد يفسد عليها دينها أين هي لتخبر أختي عن النعمة التي هي فيها لعلها تحافظ عليها وتشعر بأهميتها. وأين الرجال الصالحون تفقدوا زوجاتكم اللاتي جاهدتموهن كثيرًا وأرهقنكم لربما هدوء العاصفة فجأة يعني شيئًا كهذا، احفظوا سعتكم وأعلوا دينكم بفطنتكم ورعايتكم لأهلكم ولا تأخذكم شئون الدعوة ومجالسة الإخوان عن بيوتكم كثيرًا، أما أنت يا أختي فسيأتي اليوم الذي تأكلين أصابعك فيه ندمًا لقد خرجت بفعلك هذا عن دائرة الصالحات، وحرمت نفسك الخير الكثير، ليست السعادة أن أعيش كما أحب ولكن أن أرضي الله وأطيع زوجي في غير معصية هي قمة السعادة، فافهمي ذلك وتوبي إلى الله لعل الله يتوب عليك(*).

«أختك»

❀❀❀

(*) مجلة «الدعوة».

الحمية والخوف من الأمراض!

إن برامج التوعية الصحية والغذائية التي تمتلئ، بها الجرائد والمحطات تشكل لي هاجسًا مقلقًا لأنها تزيد من توتر زوجي، وتزيد من وساوسه. فكل يوم ينضم صنف من الأطعمة أو نوع من المعلبات إلى قائمة المحرمات عنده، لقد بت أكره الجرائد وأكره هؤلاء الذين يتحدثون فيها، لأنه يأخذ حديثهم بأنه مسلمات لا تقبل النقاش وحقائق لا يمكن رفضها.

أضع الغداء على السفرة وقبل أن تمتد أيدينا له يسأل عن كل صنف طبق الخضار هذا مقلي وهذا يعني زيادة المادة الدهنية مما يعني احتمال الإصابة بالكولسترول وانسداد الشرايين لزيادة الضغط على القلب.. أبعديه جانبًا، وهذه الذرة في طبق السلطة معلبة يعني أنها تحوي مواد حافظة ومثبتات، وأنت تعلمين خطورة هذه المواد أخرجيها من السلطة بالمعلقة ثم وزعي باقي السلطة إن أردتم أكلها أما أنا فلا أرغب في ذلك.

إذا كتبت له ورقة بلوازم البيت فإنه لا يحضر منها إلا ربعها أحيانًا يكتفي فقط بالخضار والفواكه الطازجة وبعض اللحوم، اطلب مثلًا أناناسًا مقطعًا ومحفوظًا فهو سهل الاستعمال ويدخل ضمن أطباق كثيرة فيحضر لي أناناسًا طازجًا، وماذا أفعل به، إنه لا يفيدني مثل ذلك المعلب، وإذا ذهبت معه إلى مركز التسوق فإنه يبادر إلى قراءة محتويات كل علبة آخذها ويدقق النظر ثم يعيدها مكانها، فهي لا تصلح أبدًا ونخرج من المكان وقد تخاصمنا، فهو لم يبق لي شيئًا لأشتريه.

أحيانًا أذهب مع أهلي وأعوض هذا النقص فاشتري كل ما منعني عنه دعني آكل ما أتشهي، أما أنت فشأنك أما الأولاد فلا.. فكيف أصنع هل آكل الكريمة وهم ينظرون إلي، أم أتلذذ بهذا البسكويت وهم محرومون منه؟!.

جاءتني جارتي أم شاكر وأحضرت معها حلوى للأطفال، فلما رآها معهم أخذها ثم قرأ محتوياتها مواد حافظة، مواد ملونة، دهون..غضب ثم رمي بها في القمامة ومنعهم من أكلها..

لا يدخل بيتنا بسكويتًا ولا حلوى للأطفال ولا مشروبات أو عصائر ولو مرة واحدة في الشهر، فهي كلها محرمة بيتيًا، ويقول: استعيضي عنها بصنع البيت ويحضر الكتب المخصصة لذلك ويوفر المقادير إلا أنها لا تصلح لنا ولا للأولاد، فالسكر قليل والزيت معدوم والنكهات مختفية، هي تصلح له وحده فهو يتلذذ بكل شيء قليل الدسم، قليل الملح، خفيف وصحي حتى لو كان سيئ الطعم.

قد كرهت الجلوس على طعام معه، فحين أرفع إلى فمي لقمة من الخضار المقلية أو قطعة من الحلوى المغمسة في السكر يبدأ في سرد محاضرته عن الدسم والسكر والسمنة، وعلاقات ذلك ببعض وارتباطه بأمراض كثيرة سيأتي يوم تندمين فيه، هل تعرفين أن السكريات والدهون تسبب السمنة وهي بالتالي سبب للكثير من الأمراض مثل السكري، وضغط الدم، وتصلب الشرايين، بل حتى الجلطة والعياذ بالله.

لقد رميت اللقمة وقمت عن الطعام إلى غير رجعة، وصرت أطهو طعامنا كغذاء أهل الحمية كل شيء مسلوق قليل الدسم عديم الطعم، فالوقاية كما يقول خير من العلاج، وكأننا كل يوم في حلويات ومقليات، إننا لا نصنعها إلا مرة في الأسبوع أو كل عشرة أيام، وكم يا ترى،نأكل منها قطعة أو اثنتين؟! نحن حقًا لا نسرف في هذه الناحية، أما من حيث المعلبات وأخواتها فهذا مما ابتلينا به ولكن نستطيع تخفيف ضررها بغسلها مثلها أو إماتتها طهيًا، ثم إن الموت يأتي مرة واحدة فلماذا نحرم أنفسنا من هذه الأطعمة خوفًا من المرض، فهو إن أتى حرمنا أنفسنا قهرًا.

إن لي فلسفتي الخاصة وسياسته تلك زادتني تمسكًا بنظريتي، ولكنها أتلفت أعصابي، فمللت الطبخ وكرهت الطعام وأقبلت على كل ممنوع فما عدنا نهنأ بلقمة معه، فالهرمونات والمواد الحافظة والملونة والمثبتات رعبه الدائم، أما السكريات والدهون والزيوت فهي البعبع المخيف، وكأن الموت لا يأتي إلا معها أو كأن المرض سيزول بتركها حقًا ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]، ولكن أيضًا: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣]، فالمرض بيد الله كما أن العافية من منه وكرمه فدعنا نأكل ما نشتهي ما دام حلالًا ولا شبهة فيه فنحن نأكل بقدر معقول فلا إفراط ولا تفريط ولا تراقبنا أو تدقق النظر في طعامنا، فالأمر فيه فسحة ومازال، رزقك الله حسن الفهم(*).

«زوجتك»

❀❀❀

(*) مجلة «الدعوة».

الزهد بعد العاصفة!!

نزلت صاعقة فهوت على تلك النخلة الباسقة فقصمتها نصفين واحترق فؤادها وكادت أن تموت لولا أن الله أراد بها خيرًا. مات (زياد) فجأة، جاءها خبره أسرع من البرق، قبل قليل كان بجانبها يحتسي فنجان قهوته، طلب منها المال يخرج مع أصدقائه ماطلت قليلًا لتسمع منه عبارات الرجاء التي كانت تحبها ثم أعطته المال فهي لا ترد له طلبًا إنه ولدها المدلل.

خرج من عندها بماله وكامل زينته وعاد إليها مكفنًا في أثوابه لم ترو غليلها بعد من لثمه وتقبيله، لم تشبع من الحديث معه، هناك أشياء كثيرة تود أن تقولها له، كانت تفكر في عروسه وكيف تختارها، كانت تنتظر تخرجه من الجامعة لتفاتحه في الموضوع.

مات (زياد) هكذا فجأة، فانطفأت الشمعة التي كانت تنير حياتها وتبعث فيها الأمل، ولدها الوحيد الذي كانت تعقد عليه الآمال اختطفته يد المنون دون أن تستأذنها أستغفر الله هكذا كانت تقول.

ما أحقر هذه الدنيا، يا لتفاهتها، كلها ببهرجها وزخرفها ودورها وقصورها لم تعد تساوي عندي شيئًا، لم يعد للأشياء طعمها اللذيذ، ساعات الحزن قاسية مرة تحطم القلوب، وتستل الفرح وتقضي على البهجة، ماذا أخذ (زياد) منها ماذا أعطته؟! لا شيء، لقد ذهبت لذة الأشياء وحل الإثم وبدأ الحساب والعقاب، أيعقل أن هذه الكلمات الوعظية تصدر من (أم زياد)، أختي وأنا أعرفها، لقد تمرغت في أوحال الدنيا منذ زواجه، سافرت إلى الخارج وكشفت وجهها ثم نزعت حجابها لم تكن لتؤدي الصلاة فيما أعلم إلا قليلًا تتهاون في أدائها تتكاسل عنها وتؤخرها حتى خروج وقتها، حتى المحاضرات والأشرطة النافعة لم تكن تحب سماعها، أما الحديث عن الموت فكان يكدر عليها عيشها.

تطبعت هي وبناتها بالمظاهر الغربية الخادعة وتشربت تلك الأفكار المسمومة واستمتعت بكل لحظة من حياتها بما يحلو لها وبما يوافق هواها، ولولا أن الله أراد بها خيرًا لحادت عن الطريق وزاغ قلبها.

كأن موت ابنها فجأة الصاعقة التي فلقت فؤادها وكادت أن تحرقه وتفنيه لولا لطف الله فأعقبها وابل سقى قلبها فأزال عنه الحزن الذي كان يغطيه، وارتوت بذور الإيمان فدبت فيها الحياة واهتزت وربت، سرت في جسدها إشعاعات إيمانية أفنت ما علق بفكرها من شبه وضلالات وعادت (أم زياد) لحظيرة الهداية فكانت أكبر مصيبة تتعرض لها، تحمل أجمل هدية تقدم لها!

في أول عام توفي فيه (زياد) تركت أختي السفر للخارج، أقنعت بناتها بحرمته، بينت لهن مضاره ومساوئه، كانت نفوسهن مهيأة لشيء من ذلك فانقدن طواعية وتوالت خرزات الهداية في الانتظام في العقد حتى اكتمل فبان جماله وبريقه.

التحقت بدار لتحفيظ القرآن لتسلو نفسها، فغمر القرآن قلبها فعلمت معنى قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة:٢١٦].

فانكبت على القرآن حفظًا وعرفت الطريق إلى إذاعة القرآن فلازمت سماعها فاستنارت بصيرتها وتعلمت أمور دينها وأثرت على بناتها فهداهن الله للتمسك بالحجاب الشرعي والمحافظة على الصلوات والتزود من الصالحات، فعدن جميعًا يسألن عن حلق الذكر ويجلبن الأشرطة النافعة ويطهرن بيتهن من المنكرات، والصور المعلقة في كل ناحية، والمجلات الوضيعة والأشرطة الغنائية، والأفلام الرخيصة،والملابس المخالفة، ثم عادت كل واحدة إلى نفسها فقومت اعوجاجها ورأيتهن كثيرًا يحافظن على السنن، ويصمن تطوعًا، ويسألن عن الأعمال التي تنفع بعد الموت.

وبعد أن كنت الضيفة الثقيلة عليهم صرت محببة إلى نفوسهن، فكثيرًا ما يتعلقن بي ويدعونني للعشاء معهن، أو تدس إحداهن في يدي مالًا صدقة منها عن نفسها وعن أخيها يرحمه الله لأجعله في المستحقين.

وكأنما عاصفة هدمت البيت ثم عادوا في بنائه، تغير جذري قلوب عامرة، وألسنة ذاكرة، ومجلس لا يخلو من ذكر الموت هادم اللذات ومفرق الأحباب والجماعات، ازدراء للدنيا ومعرفة بحقيقتها، لم تكن أختي أبدًا قبل سنتين على حال حسنة ترضي الله، ولكن لما أراد الله بها خيرًا جعل موت ابنها بابًا يفتح مغاليق قلبها للهداية.

كنت أخجل من قرابتها قبل ذلك، أما اليوم فأنا أشد الناس فرحًا بها وببناتها وأرفع رأسي افتخارًا بأخوتها: ثبتها الله على القول الثابت(*).

«أختك»

❀❀❀

(*) مجلة «الدعوة».

هكذا تكون لذة العقوق!!

كانت ترى فيه السعادة كل السعادة، ترى فيه الدنيا كلها ولا ترى في الدنيا سواه، وكذلك كان؛ لأنه وحيدها؛ وهي كذلك! كانت وحيدته؛ إذ أنهما كما يقول أهل هذا الزمان مقطوعان من شجرة! وترجمتها: أنهما لا قريب لهما ولا نسيب ولا صهر ولا حبيب!، مات زوجها ولم يترك وراءه لها سوى بيت من الطين؛ يقبع في زاوية خجولة من حيٍّ قديم من أحياء الرياض!؛ ليس في بيتها ما يرد العين إلاَّ أثاثٌ إذا رأيته عرفت من أول نظرة أنه لم يعد يصلح إلاَّ لزمن ولَّى أصحابه قبل عشرين عامًا؛ أما أصحاب زماننا فيأنفون أن يجلسوا على مثله؛ لأن ثيابهم أنظف من قلوبهم! أما أولئك السابقون فبعكسنا تمامًا كانت قلوبهم أنظف من ثيابهم!.. وترك لها في هذا البيت طفلًا رضيعًا في أشهره الأولى.. فكان كل متاعها في الدنيا: بيتًا من الطين؛ وطفلًا كوجه الصبح الحزين؛ وحفنةً تأتيها كل عام لا تملأ الكفَّ من مال يسمى (الضمان الاجتماعي) تُقيم به صُلْبها وصُلب صغيرها وتدخر ما بقي منه للأيام السود في حياتها وما أكثرها، رعته حتى أدخلته المدرسة؛ وفي أول يوم غدا فيه إلى مدرسته يحمل على رأسه حقيبة صغيرة ينوء بحملها! ليس فيها إلاَّ (..جزء عم.. والهجاء.. والحساب.. وقلم الرصاص.. وكسرة من خبز يابس هي إفطاره)! يجر خلفه طرف (شماغه) وطاقيته تتوسط رأسه الصغير. رأته ففاضت عيناها فرحًا بصغيرها الذي يستقبل أول أيام المستقبل، كان ديدنها أن تغدو معه كل صباح إلى مدرسته سيرًا على الأقدام؛ وتنتظره في حر الشمس ظهرًا حتى يعود فتتلقاه بالقُبل.. تطبعها على خديه وتحمل عنه حقيبته ويعودان للبيت... فرحةٌ غامرة.. عمرت قلبها عندما سمعت بنبأ نجاحه في المرحلة الابتدائية.. بل كانت تخبر كل من تلقاه في طريقها أنَّ ابنها حمل الشهادة (الصفراء)!.

مرت السنون؛ وإذ به يحمل الشهادة الجامعية! من أعرق جامعات المملكة في قلب العاصمة! ولا يزال مع وحيدته الحبيبة في بيت الطين! وكانت فرحة ممزوجة بالألم والأمل معًا؛ تلك التي كان سببها.. استئذانه حبيبته أن يفارقها ويفارق بلاده للسفر في بعثة لمواصلة دراسته العليا في بلاد الغرب؛ يأتي بعدها حاملًا أعلى الشهادات، كاد قلبها ينخلع من البكاء عندما أغلقت عليه باب سيارة الأجرة التي ستوصله إلى مطار الرياض ليغيب بعدها عن حبيبته الغالية ست سنوات كاملات! لا يعرف من أخبارها شيئًا إلاَّ بواسطة رسائل الجيران الأخيار؛ الذين تطلب منهم جارتهم العجوز كتابتها لابنها الذي سافر بقلبها معه... كانت تضم صورته التي تزيّن شهاداته السابقة على صدرها كل ليلة وتبلها بالدموع حتى يغلبها النوم.. فتنام لتراه يتراءى لها في المنام! هكذا هي طوال سنواتها العجاف؛ كان الله في عونها.

مرت السنوات.. وإذ بها تتلقى رسالة من ابنها (الدكتور).. يخبرها فيها أنه قاب قوسين أو أدنى من رحلة العودة..لم تسعها صحراء نجدٍ كلها من فرحها. دعت الله كثيرًا أن يبقيها حتى تراه.. وودعت النوم.. ترقبًا لمجيئه... في يوم.. غلبتها عيناها ضحوةً؛ فإذا باب بيت الطين الذي لم يكن ليغلق كما تُغلق أبوابنا اليوم يُفتح وتظهر منه مقدمة حقيبتين كبيرتين.. يدخل بعدها رجل قارب الثلاثين من عمره يلبس ملابسًا لم يكن لبسها معتادًا في ذلك الوقت إلاَّ قليلًا.. (جاكيت.. وملحقاته من كرافته..وحذاء يلمع لمعان البرق).. حضنته بين يديها الضعيفتين وغابت عن الدنيا!؛ بكاءٌ متبادل أزعج الجيران الواقفين في حوش المنزل الذين أتوا للترحيب والتهنئة بقدوم الابن الضيف(..الدكتور).

وتمر السنون! وينتقل بها إلى منزل اشتراه.. يليق به وبمنصبه؛ أما هي فلا يليق بها!؛ ويودعان بيت الطين إلى غير رجعة؛ ذلك أنه باعه بثمن بخس دراهم معدودة

وكان فيه من أزهد الزاهدين!.. أما هي! فكأنها قطعت قطعةً من قلبها وألقتها وتراءى لها منظر الجيران الطيبين..لكنها صبرت ابتغاء رضاه! بعد رضا الله تعالى.

أتته في يومٍ؛ تعرض عليه الزواج من بنت (فلان) امرأة دينه..صالحة.. عفيفة.. محتشمة.. مطيعة...تخدم في بيتها بنشاط بنات ذلك الزمان.. وهي مع ذلك...! ضحك وربت بيده على كتفها وقال: لم يحن الوقت بعد.

حان الوقت! وتزوج امرأة من طبقته هو! ذات منصب وجمال.. لكنها كانت أنموذجًا من النساء بارعًا في التكبر والغرور والازدراء لأُمّه والاحتقار لها ولكلامها.. ولبسها.. و..

صبرت الأم صبر أيوب!! ولم تشأ أن تجرح مشاعر ابنها؛ فلم تخبره بشيء مما يقع لها معها، كانت تلك المرأة تسومها سوء العذاب كل يوم!. حتى إذا قدم الدكتور من عمله انفردت به في غرفتها.. وسردت له أحداث النهار كله؛ وكيف أنها عانت من أمه وعانت و... هكذا كان الحال كل يومٍ!!! كان يعجب أشد العجب إذا سأل أمه عن زوجته: كيف هي؟ فتثني عليها خيرًا ما استطاعت؛ كل ذلك اتقاء ما يجرح شعوره ويسبب غضبه!... نفد صبره.. ونفد (بالدال) إيمانه.. ونفد ما كان في قلبه من بقايا رحمة عاد بها معه من بلاد الغرب على استحياء.. فوقف على رأس أُمّه وهي تغسل ثيابها في حوش المنزل! وتلك الأفعى وراءه بشعرها الطويل المنثور على ظهرها وقال لها بصوت الآمر: يا أمي.. إما أن تراعي منصب زوجتي وتستقبلي زميلاتها بثياب حسنة وكلام زين ولا تجلسي معهم في الصالة.. وإلا التفتت الأم العجوز! خلفها وظنت أنه يخاطب أحدًا غيرها؛ فلما لم تجد إلاَّ نفسها في فناء المنزل؛ علمت أنها هي المقصودة بالكلام لوحدها فأظلمت الدنيا في عينيها واتكأت على ما بقي في جسمها من قوة ودخلت ملحقها الصغير ورمت بنفسها على فراشها؛ وخبأت رأسها في مخدتها وبكت حتى كاد أن ينشق قلبها.

زادت الأفعى في خبثها؛ وزادت أُذُن الدكتور في سماعها!، حتى كانت الطامة الكبرى وقاصمة الظهر: كم مرة قلت لك أن عقلية العجائز هذه لم تعد تناسبنا.. صارت قديمة.. تفهمين؟..حتى التليفون تردين عليه؟..ما بقي شيء ما تدخلتي فيه في هذا البيت النكد؟! الله يستر عليك نحن لم نعد نصلح لك؛ ولا أنتِ تصلحين لنا (حملت الأم في يدها كيسًا من القماش أودعته ما لديها من ثياب.. وخرجت حتى إذا وقفت بباب القصر المنيف! التفتت إليه ودموعها تسطع على خديها في ظهيرة تشوي الوجوه)؛ وقالت: سامحك الله يا ولدي.. والله ما عملت لكم إلاَّ كل خير أنت وزوجتك.. ووالله ما أذكر أني جرحتها بشيء.. سامحكم الله.. ثم شهقت شهقة ملؤها القهر.. وذهبت إلى حيث لا تعلم. حاول أن يوقظ ضميره فيلحق بها؛ فمنعته الأفعى.. الرقطاء الجميلة الناعمة الملمس.. فلم يفعل.

مرت الأشهر! وهي تساءل عنه ما تبقى من جيرانها؛ لتعلم هل هو بخير؛ هل مرض؛ هل رزق بأطفال؟! هل..وكانت تنتقل من هذا الجار إلى هذا إلى ذاك.. وتمكث عند هؤلاء أيامًا وعند هؤلاء شهرًا.. وهناك أكثر.. تأخذ في حياء شديد ما يقدمونه لها من صدقات.. وكأنها تبلع الجمر الأحمر.. مرض.. دخل المستشفى.. سمعت أمه بالخبر.. استأجرت سيارة الأجرة لتراه.. وجدت الأفعى عند باب غرفته في المستشفى؛ فأغرت بها الأطباء والممرضات وأنها عجوز مجنونة.. لا عقل لها نخاف على الأجهزة الطبية منها.. فأخرجوها وهي تنتحب.. أريد أن أراه.. يا ناس هذا ولدي.. حبيبي.. فلذة كبدي.. الله يخليكم لا تحرموني من رؤيته...خرج من المستشفى ولم يُخبر بزيارة أمه له. أنفق جُلَّ أمواله في علاج مرضه؛ بل كل ماله؛ وباع بعض أثاث منزله.. وقفت الأفعى الرقطاء.. في وجهه يومًا على إثر خلاف بينهما لتكثر عليه الطلبات؛ فلما لم يستجب قالت بصلافة المسترجلات: صبرت عليك وعلى أمك من قبل.. أنت الآن وللأسف لم تعد رجلًا.. ولا استعداد لدي أكثر من هذا أن أعيش مع فقير مثلك..

طلقني.. هل تسمع.. طلقني..قال: كأنها صفعتني على وجهي بيد من حديد؛ وألقتني في صحراء النفود عريانًا... طلقها.. وذهب يبحث عن ذكريات قديمة مفقودة.. اسمها (أمه الحبيبة الغالية.. المظلومة)..طرق باب كل بيت في الحي القديم؛ وسأل عنها كل جار.. لكن دون جدوى.. بحث عنها في ثلاجات المستشفيات.. في أقسام الشرطة.. دون جدوى أيضًا.. أعياه التعب! حتى ظن أنها قد ماتت.. هام على وجهه بحثًا عنها.. وأيضًا بلا جدوى! وفي يومٍ.. وفي طريق عودته مر بمسجد الحي القديم ليصلي به صلاة المغرب.. علَّه يجد عنها خبرًا لدى جيرانه الأقدمين.. فإذا به يرى منظرًا يؤمن لرؤيته الملحدون ويتوب العاصون.. منظرًا يقطع أنياط القلوب ويمزق الأحشاء ويستنزف الدموع من العين بالقوة... ماذا تتوقعون؟! إنها أمُّه الحبيبة الغالية تشحذ الناس على رصيف المسجد.. وتمد يدًا لطالما مدتها إليه في صغره بالريال والخمسة والعشرة... تمامًا كما تُمد إليها أيدي المصلين الآن بالريال والخمسة و.. و.. و.. ولطالما عطفت عليه في صغره وحزنت عليه في غربته في كبره.. واليوم تتسول لتعيش فقد ملت من عطايا وصدقات الجيران وأحست أنها عالةٌ عليهم وأنها أذلت نفسها كثيرًا كثيرًا.. فلجأت إلى استجداء عباد الله بجوار بيت الله!.ارتمى بين يديها يقبل أقدامها ويديها ويضع قدميها على خديه.. وبكاؤه يشق سماء نجدٍ. منظرٌ يقف الحليم أمامه حيران..حملها بين يديه.. أمام المصلين وذهب بها يمشي على وجهه إلى منزله.. وهو يردد بصوت متهدج مخنوق بالدموع والحسرات؛ وجؤار يملأ الشوارع: لعنة الله على الزوجة الفاجرة.. وعلى الدكتوراة.. وعلى العمارة.. وعلى الراتب.. وعلى المال... وعلى من فرق بيني وبين أمي.

وذهب يحملها بين ذراعيه وطرف (شماغه) يخط على الأرض و(عقاله) على ذراعه اليسرى وولى ظهره للدنيا! (*).

(*) قصة للشيخ/ موسى الزهراني.

امرأة من الزمن القديم؟!

أمي منيرة هي أم زوجي، امرأة كبيرة في السن تجاوزت الثمانين حولا، ولكنها تتمتع بصحة جيدة والحمد لله، هي امرأة من الزمن القديم، لم تتفاعل مع مجريات عصرها ظلت على حالها الأولى في استيقاظها باكرًا وممارسة حياتها المعتادة، تقف دائمًا من وسائل التقنية الحديثة موقف انبهار وتعجب ولا تخفي شعورها هذا بحكم صفاء الفطرة ونقاء السريرة.

إن امرأة مثلها من الواجب أن تعامل باحترام وتقدير شديدين من قبل أبنائها وأحفادها وأن تقرب لها الأمور وتبسط لها المسائل ويراعى بساطة تفكيرها ومحدودية إدراكها، ولكن الحال عكس ذلك تمامًا فهي - أحسن الله خاتمتها - فاكهة مجالسهم ومحل تندرهم يكثرون من التعليقات عليها، ويضحكون من تصرفاتها ملء أشداقهم.

كانت إلى وقت قريب تسدل خمارها على وجهها إذا ظهر المذيع على شاشة التلفاز فكان هذا أول ما يفتتحون به مجالسهم في اجتماعاتهم (نادوا أمي منيرة وافتحوا التلفاز) ثم تتعالى الضحكات في كل مكان. كم أعجب لهم كيف يفتعلون المواقف ليضحكوا عليها وكأنها في نظرهم مهرج في سيرك ما جاء إلا ليضحك الجماهير.

إن عاتبتهم على السهر حتى الساعة العاشرة مساء: انتصف الليل وأنتم في هرج ومرج سخروا منها وتبادلوا التعليقات!!. وأحيانًا تغفو قبل وقت الصلاة بقليل فإذا قامت سألت قبل أن تستوعب الوقت: هو أنا صليت؟! فتتعالى صيحاتهم تهكمًا بها ومنها.

إنهم لا يفعلون ذلك عند هذه المواقف، بل في كل لحظة تسنح لهم لا يقدرون كبر سنها ولا حجم معرفتها، وكان الأولى بهم أن يصححوا لها الخطأ بطريقة لبقة وأن يترفقوا في إيصال المعلومة السليمة لها.

ذات يوم رأت أحد أحفادها الصغار يقضم أظافره فنهته مبررة ذلك بأن الأظافر تنمو في المعدة، فما عدت تسمع شيئًا من ضجيج الضحكات العالية وغارت العيون في بحر الدموع من شدة الضحك، ألم يكن تصحيح هذه المعلومة كافيًا لتدرك خطأ بعض المعتقدات المتراكمة في عقلها والتي لم تستند إلى علم أو دراسة؟!! ماذا أجدى الضحك؟!! لغد تغير لونها وضاق صدرها فهي لم تقل إلا ما تعتقده حقًا!! فلا تعلم لماذا هذا الضحك؟!.

أما الأسماء والمعارف فحدِّث ولا حرج... أمي منيرة تسمي المايونيز فنيس والبيتزا خبزة والسنترال لمبة لأنها لا تراهم يتعاملون معه إلا وتضيء أزراره فتقول مثلا نادوا محمد باللمبة أو مع اللمبة وغيرها.. ففي كل يوم تتردد فيه هذه الكلمات على لسانها يضحكون منها وكأنهم يسمعونها لأول مرة.

هل نسوا أنهم كثيرًا ما يخطئون في نطق بعض الكلمات الإنجليزية التي يسمعونها لأول مرة إن هذه مثل تلك فلماذا المبالغة في الضحك والاستهزاء؟!

حين لم تستطع فتح جبن الشرائح ضحكوا منها، وحين قالت للصغير: هج الباب يعني افتحه ضحكوا منها، بل صاروا يروون هذه المواقف لكل من يزورهم ويزورونه.

إنني أعتب على البنات كثيرًا فأين احترام الآباء والأمهات؟ أين تقدير الكبير؟ ولكنني أوجه العتب الشديد لأمهاتهن وآبائهن كيف يسكتون عليهن وهن يسمعونهن ويشاهدونهن يتهكمن بجدتهن ويسخرن منها ومن كلامها بل يتبادلن النكات بهذا الشأن. إننا معرضون لأن نكون في يوم ما في مثل موقفها فهل نرضى أن نقابل من أصغر أحفادنا بهذا السيل الجارف من الضحك والسخرية والاستهزاء؟ إذن فلنكن لها كما نود أن يكون لنا أبناؤنا وأحفادنا، والسلام(*).

«زوجة ابنك»

(*) مجلة «الدعوة».

ذاكرة التاريخ لا تنسى

أبناء عمتي ونحن عشنا طفولة واحدة، حيث سكنا في حي واحد، بل في نفس الشارع، في بيتين صغيرين متقابلين بنيا من الطين واللبن، لعبنا معًا وضحكنا معًا، كنا نشتري من بقالة واحدة ومخبز واحد وندرس في نفس المدرسة، لم نكن نعرف المصروف، كانت أمهاتنا يعملن لنا خبزًا محشوًا نأخذه معنا للمدرسة إفطارًا، وكانت عمتي تتقن الخياطة أكثر من أمي، فكانت تخيط لنا المرايل وملابس العيد بأجرة، لم تكن تخيط غيرها، كنا وبنات عمتي نجلس عند باب البيت نلعب بالطين، نصنع البيوت وغيرها ونحكي الحكايات، ليس عندنا لعب غير تلك سوى أعود من الخشب، نكسوها بعض الخرق لتصبح كالعرائس.

كنا نعرف للنعمة قدرها فنحافظ عليها، لم نكن أبدًا نرمي في القمامة شيئًا، بل كنا نتلهف عليها لأننا لا نجدها دائمًا، لم نكن نأكل اللحم بشكل يومي ولا نشرب اللبن أيضًا، حقائبنا المدرسية تظل معنا لسنوات حتى تتمزق، والحذاء لا نشتري غيره حتى يبلى، لم نكن كباقي الناس في وقتنا، بل كنا أقل منهم بقليل.

وجاءت سنوات الطفرة وأخذ كل منها بنصيب، ونالنا شيء من ذلك فوسع الله علينا وفتح لنا أبواب رزقه، فتمكنا بحمد الله من بناء بيت كبير وصار لوالدي مكتب عقاري يدر عليه المال، وتحسنت أحوالنا كثيرًا، ولم يبق من الماضي إلى شخوصه.

أما عمتي فقد أثروا ثراء كبيرًا فبنوا قصرًا جميلًا في حي راقٍ ودخل زوجها عالم الأسهم فصعد به إلى الأعلى، فاستفاد منه كثيرًا ولكنه لم يعتمد عليه ففتح الله عليه من فضله فظهر أثر نعمته عليهم، فصاروا من أهل الجاه والوجاهة ونسوا ماضيهم وتنكروا له. صاروا أبناء اليوم الذين ولدوا في هذه اللحظة وفي أفواههم ملاعق ذهبية،

ولدوا على فرش وثيرة في مستشفيات كبيرة، لقد نسوا أين ولدوا؟ والذي ينسى ماضية فكأنما يجتث نفسه من التاريخ ويرمي بها خارجًا في ذاكرة النسيان.

كيف كنا في الماضي في أيام الفقر والحرمان كنا نشتري من أم علي التي في آخر الشارع الآيس كريم وهو عصير مخفف بالماء ومثلج تضعه في أكياس النايلون الصغيرة ونفرح به أشد من فرح الصغار بهذه البوظة الرائعة ذات النكهات المختلفة، ولم تكن أموال أهلنا تسمح لنا بشرائه كل يوم، لذا كنا أحيانًا نتأمل الصغار وهم يروحون ويغدون لبيت أم علي يشترون الآيس كريم ويتلذذون بمصه.

كنا لا نلبس الجديد إلا يوم العيد فستانًا وحذاء ولا نعرف اللحم إلا في عيد الأضحى ورمضان، كنا نزهو بالحناء في أيدينا وبضفائرنا الطويلة.

واليوم تتنكرون لهذا كله، تقولون لقد ورثتموه كابرًا عن كابر؟! أين كان زواجي، وزواج هند ابنة عمتي؟! كان في سطح بيتنا، عمتي خاطت لي ملابس وكذا لابنتها، واليوم يقولون كانوا يخيطون ملابسهم عند الخياطة قبل أن توجد محلات الخياطة والمشاغل!.

قلت لابنة عمتي: إن صديقتنا شيماء التي درست معنا في الابتدائية تسلم عليها رأيتها في مناسبة وتسأل عن ضفائرها الطويلة، فاحمر وجه ابنة عمتي وتغير، فهي منذ كانت صغيرة تقص شعرها حسب الموضة! هكذا تزعم؟!.

عندما يأخذنا الحديث إلى الماضي ألاحظ أنهن يحاولن بكل طريقة تغيير مجراه والسير به إلى حيث يردن خاصة إن كان معنا في المجلس أحد آخر مثل زوجات أبنائهن أو بنات أبنائهن أو غيرهن. كان في التلفاز برنامج وثائقي عن تاريخ بلادنا، فكانت الصور تعرض أنماط المعمار القديمة وبيوت الطين العبقة فخفقت إليها قلوبنا وتذكرنا بيتنا الطيني في تلك الحارة الشعبية القديمة قلت: ليتنا نرى بيتنا.

لقد ذكروني به ترى هل هو موجود أم تهدم كما تهدمت بيوت غيره؟ فقالت ابنة عمتي: بيتنا لم يكن مثل هذه البيوت، أهلها أصلًا لم يسكنوا فيها، بيتنا كان مسلحًا لم يسقط، هذه البيوت قديمة يمكن من خمسين أو سبعين سنة من سبعين سنة؟؟! هل نسيت حين تأتون عندنا ونقوم برش الجدران في السطح ليبرد المكان وتنطلق رائحة الطين المميزة الجميلة فنسمر على ضوء القمر حتى يغلبنا النوم؟!.

أغتاظ كثيرًا حين أسمعهم يتحدثون عن حياتهم وكأن ماضيهم مخملي ناعم الملمس، فهذا الموديل هو أول من لبسه، وتلك الألوان هم أول من اشتراها، ونحن قلدناهم فيها، وكانوا يأخذون مصروفًا يوميًا للمدرسة، ولهم في كل فصل دراسي حقيبة، وفي كل موسم فستان.

ذات مرة رمى ابن بنت عمتي الجبنة على الأرض ثم قام وهرسها بقدمه، نهرته وأخذتها من تحته ثم قلت له: إننا كنا نتمناها في الماضي، كنا نراها في البقالة ولكننا لا نستطيع شراءها، فسأل أمه عن صحة كلامي فقالت: هم يا ولدي وليس نحن!!.

إن من التحدث بنعمة الله شكرها والاعتراف بفضل الله علينا وتذكر ماضينا وحمد الله على منّه وكرمه وأن اصطفانا بهذه النعمة على كثير ممن خلق، إن التشبع بما لم يكن واحتقار الفقراء والنظر إليهم بدونية، وتقييم الناس حسب إشكالهم وهيئاتهم فهذه متمدنة قربوها وتلك قروية وريفية أبعدوها، كل هذا مما يجلب غضب الله ويستوجب عقابه، فكونوا متواضعين واعترفوا بنعمة الله عليكم واشكروه يزدكم(*).

«ابنة خالكم»

(*) مجلة «الدعوة».

مراهقة في الخمسين!!

اللهم إنا نسألك حسن الختام، ما أسوأ أن يعود المرء ليعيش مراهقته بعد أن تجاوز الخمسين، ففي الوقت الذي يفترض فيه أن يتخفف من أحمال الدنيا ويتجه إلى العبادة تراه وقد انكب عليها وبدأ يعب من مباهجها ويمتلئ من ملذاتها متناسيًا أن الأجل قرب وأنه لم يعد في عمره أكثر مما مضى.

اللهم إنا نسألك حسن الخاتمة... قلتها لأختي مرارًا وتكرارًا ولكن ما من مجيب، فها هي تعود في تصرفاتها كشابة في مقتبل عمرها تلهيها الدنيا وتفتنها بزخرفها، تناست أنها جدة لتسعة من الأحفاد أكبرهم في السابعة عشرة من عمره، ولا تريد أن أذكرها بأن بناتها صرن في طولها وكل واحدة منهن تجر خلفها ذريتها.

إنني أشفق عليها كثيرًا، لقد سلبت عقلها التفاهات، وأضاعت وقتها الفضائيات، فصارت تبقى عندها وتتلقى منها كأنما هي وحي منزل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كل يوم لها قصة شعر جديدة، قد لا تناسبها ولكن هذا لا يهمها ما دامت هذه هي الموضة التي شاهدتها في تلك القناة، صارت زبونة دائمة في المشاغل النسائية تقص شعرها وتصبغه، وتشد بشرتها وتنظفها، وتزيل التجاعيد وتغلق المسامات، وحين تنظر إلى صورتها في المرآة وترى تغييرًا ولو بسيطًا تجري إلى المركز النسائي لتصلح ما تلف.

ارتدت ذات يوم تنورة ضيقة فظهر لها بروز في بطنها فتندر بها بعض الحاضرات فسارعت إلى أحد مراكز التجميل لتشفط الدهون وتشد الترهل، ثم عادت بعد فترة ترتدي ذات اللباس لتغيظ الحاضرات!!

لقد اختلفت أختي كثيرًا فما عادت تلبس مثلنا، فملابسها ضيقة وكعبها عالٍ وفي الحفلات لا تتورع أبدًا عن لبس العاري والمشقوق واختيار الألوان الصاخبة والماكياج الشبابي والتسريحات الصبيانية الثائرة. في المشغل اختارت أختي تسريحة معينة لتحضر بها حفلة خاصة ضحكت المصففة وقالت: إنها تسريحة فتيات صغيرات ولا تناسبك ولكن أختي أصرت على رأيها وقالت: أود أن أبدوا صغيرة مثلهن!!.

إن المرء حين يتبع هواه يضل، والمرأة إن لم تجد راعيًا وناصحًا ورادعًا وقل عندها الخوف من الله فسوف تضل إلا أن يشاء الله ربي غير ذلك، فهذه هي أختي أنزلت عباءتها من عليائها وتفننت في شكل خمارها مدعية أن هذه العباءة أستر وأسهل في اللبس!! وكأن أمهاتنا وجداتنا وجدن صعوبة في لبسها أو عانين من عدم سترها اللهم ثبتنا.

لقد باتت أختي خبيرة في الملاهي والحدائق والمتنزهات وليتها مثلنا نذهب مع بناتنا وزوجات أبنائنا ونجعل لنا بساطًا على الأرض نجلس ونتبادل الأحاديث ونغير جو. لا: إنها تختلف عنا، ترتدي البدلة وهي عبارة عن قطعتين قميص وبنطلون ثم تجوب المكان حاملة حقيبتها تشارك في بعض الألعاب وكأنها...!، إنها ترى أن البنطال شيء من لوازم الاستراحات والحدائق والملاهي فلا بدل لها منه!!.

كم أرثي لحالها وأنا أعلم عنها الشيء الكثير، فهي تعاني من القولون، وعندها احتكاك في الركبة، ولديها مشكلة في المفاصل ودائمًا تشكو حموضة في المعدة عافانا الله وإياها وهذه كلها أعراض لتقدم العمر بشهادتها هي فلماذا هذه الغفلة؟ وهذا البعد عما ينفعها؟ لماذا لا ينذرها الشيب بدنو الأجل، وقرب الرحيل، إن كل يوم يمضي وكل خطوة تخطوها تدني من القبر، فلماذا لا يكون في تعاقب السنين لك عبرة وعظة؟ أيعقل وأنت على أعتاب الستين توقفت عن الإنجاب وصرت جدة تعودين لسالف عهدك وكأنك تحيين العمر مرتين؟ أين إيمانك؟ أين حياؤك؟ ألا تخجلين من أبنائك وبناتك؟

ألا ترحمين زوجك أرهقته بهذا الإسراف على الثانويات والتوافه، وكان الأولى أن تكوني قريبة منه في هذا الوقت بالذات، إنه يعرفك جيدًا، والعشرة تزيد المودة، فهذه القشور لن تكون أهميتها عنده كما لو أنك بذلت وقتك له فجهزت قهوته وإفطاره وبقيت معه في البيت، اتركي بناتك يذهبن فأزواجهن مازالوا شبابًا يجدون ما يقضون به ساعات نهارهم، أما زوجك فهو قابع في البيت يريد زوجة تحادثه وتسامره وتملأ وقته لا يريد دمية يتفرج عليها، ثم إن خير الأمور الوسط.

فأنا لا أحرمك متاع الدنيا، ولكن عيشي زمانك الذي خلقك الله فيه، واسألي الله حسن الخاتمة، وقومي عن هذه الفضائيات فإنها تمطر السم والعفن، أرجو أن تفهمي قصدي وتدركيه... هدانا الله وإياك للحق(*).

«أخنك»

❀❀❀

(*) مجلة «الدعوة».